37 Surah Saafaat Tasir Nazm Durrar Baqaaee

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/

(البقاعي (ت 885 هـ

▲ سورة الصافات

سورة الصافات

تفسير الآيات رقم [1- 7]

{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7)}

قال تعالى: {والصافات} أي الجماعات من الملائكة والمصلين والمجاهدين المكملين أنفسهم بالاصطفاف في الطاعة، فهو صفة لموصوف محذوف مؤنث اللفظ، وعدل عن أن يقول: «الصافين» القاصر على الذكور العقلاء ليشمل الجماعات من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش وغيرها، إشارة إلى أنه لا يؤلف بين شيء منها ليتحد قصده إلا واحد قهار، وأنه ما اتحد قصد شيء منها إلا استوى صفة، ولا اعتدل صفة إلا اتحد زجره وهو صياحه، ولا اتحد زجره إلا اتحد ما يذكره بصوته، ولا اتحد منه ذلك إلا نجح قصده واتضح رشده بدليل المشاهدة، وأدلها أن الصحابة رضي الله عنهم لما اتحد قصدهم في إعلاء الدين وهم أضعف الأمم وأقلها عدداً لم يقم لهم جمع من الناس الذين لا نسبة لهم إليهم في قوة ولا كثرة، ولم ينقص صفهم، وجرح القلوب وأبارها زجرهم، وشرح الصدور وأنارها ذكرهم، كما أشار إليه تعالى آخر هذه السورة بقوله {وإن جندنا لهم الغالبون} وكذا غير الآدميين من الحيوانات كما يرى من الفار والجراد إذا أراد الله تعالى اتحاد قصده في

شـــيء فإنه يغلب فيه من يغالبه، ويقهر من يقاويه أو يقالبه، فبان أن الخير كله ما أريد بالقســـم، واتحد جداً بالمقســـم عليه والتأم والتحم به أيّ التحام، وانتظم معناهما كل الانتظام.

ولما كان التأكيد بالمصـــدر أدل على الوحدة المرادة قال: {صــفاً *} وهو ترتيب الجمع على خط. ولما كان توحد القصــد موجباً للقوة المهيئة للزجر، وكان تكميل الغير مســبباً عن تكميل النفس، ومرتباً عليه، وأشــرف منه لو تجرد عن التكميـل، وكـان التكميـل إنمـا يتم أمره ويعظم أثره مع الهيبـة «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد» قال عاطفاً بالفاء: {فالزاجرات} أي المنتهرات عقب الصـــف كل من خرج عن أمر الله {زجراً} أي انتهـاراً بالمواعظ وغيرها تكميلاً لغيرهم.

ولما كانت الإفاضـــة مســببة عن حســن التلقي المســبب عن تفريغ البال المسبب عن هيبة المفيد، وكان فيض التلاوة أعظم الفيض قال: {فالتاليات} أي التابعات اســتدلالاً على قولهم وفعلهم وتمهيداً لعذرهم وتشــريفاً لقدرهم، وتكميلاً لغيرهم: {ذكراً} أي موعظة وتشــريفاً وتذكيراً من ذكر ربهم إفاضــة على غيرهم من روح العلم وإدغام التاء في الصـــاد والزاي والذال إشـــارة إلى أن ذلك مع هوله وعظمه قد يخفى عن غير من يريد الله إطلاعه عليه، فقد قطعت الصـــيحة قلوب الكفرة من ثمود وغيرهم، ولم تؤثر فيمن آمن منهم، وقد كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي صـلى الله عليه وسلم ما يأتي به من القرآن والصحابة رضـي الله عنهم حوله لا يستمعون شيئاً منه– والله الموفق {إن إلهكم} أي الذي اتخذتم من دونه آلهة {لواحد *} أي فإن التفرق

لا يأتي بخير، لما يصــحبه من العجز البعيد جداً عن الكمال الذي لا تكون الإلهية أصــلاً إلا معه، فإليه لا إلى غيره ترجعون ليفصــل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، وهو الذي أنزل هذا الكتاب بعزته ورحمته وحرســه من اللبس وغيره بما ســيذكر من كبريائه وعظمته ولو لم يكن واحداً لاختل أمر هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة، وما يترتب عليها، فاختل نظام هذا الوجود الذي نشاهده كما نشاهد في أحوال الممالك عند اختلاف الملوك في تغيير العوائد ونســخ الشــرائع التي كان من قبلها أطدها وجميع ما لـه من الآثار والخصــائص، ونحن نشــاهد هذا الوجود على ما أحكمه ســبحانه وتعالى لا يتغير شــيء منه عن حاله الذي حده له، فعلمنا أنه واحد لا محالة متفرد بالعظمة، لا كفوء له من غير شك.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضــمنت ســورة يس من جليل التنبيه وعظيم الإرشــاد وما يهتدي الموفق باعتبار بعضــه، ويشــتغل المعتبر به في تحصــيل مطلوبه وفرضــه، ويشــهد بأن الملك بجملته لواحد، وإن رغم أنف المعاند والجاحد، أتبعها تعالى بالقسم علة وحدانيته فقال تعالى {والصافات}- الآية إلى قوله تعالى {إن إلهكم لواحد} إلى قوله {ورب المشــارق} ثم عاد الكلام إلى التنبيه لعجيب مصنوعاته فقال تعالى {إنا رأينا السماء الدنيا بزينة الكواكب} إلى قوله {شــهاب ثاقب} ثم أتبع بذكر عناد من جحد مع بيان الأمر ووضوحه وضعف ما خلقوا منه {إنا خلقناهم من طين لازب} ثم ذكر اسـتبعادهم العودة الأخروية وعظيم حيرتهم وندمهم إذا شــاهدوا ما به كذبوا، والتحمت الآي إلى ذكر الرســل مع أممهم وجريهم في العناد والتوقف

والتكذيب على سـنن متقارب، وأخذ كل بذنبه، وتخليص رسـل الله وحزبه، وإبقاء جميل ذكرهم باصـطفائهم وقربه، ثم عاد الكلام إلى تعنيف المشـركين وبيان إفك المعتدين إلى ختم السورة– انتهى.

ولما ثبت أنه واحد، أنتج وصـفه بقوله: {رب} أي موجد ومالك وملك ومدبر {السماوات} أي الأجرام العالية {والأرض} أي الأجرام السـافلة {وما بينهما} أي من الفضـاء المشـحون من المرافق والمعاون بما تعجز عن عدة القوى، وهذا– مع كونه نتيجة ما مضـى– يصلح أن يكون دليلاً عليه لما أشار إليه من انتظام التدبير الذي لا يتهيأ مع التعدد كما أن المقسم به هنا إشـارة إلى دليل الوحدانية أيضـاً بكونه على نظام واحد دائماً في الطاعة التي أشـير إليها بالصـف والزجر والتلاوة، فسـبحان من جعل هذا القرآن معجز النظام، بديع الشأن بعيد المرام.

ولما كان السـياق للإفاضـة بالتلاوة وغيرها، وكانت جهة الشـروق جهة الإفاضـة بالتجلي الموجد للخفايا الموجب للتنزه عن النقائص، وكان الجميع أليق بالاصـطاف الناظر إلى القهر بالأئتلاف قال: {ورب المشـارق *} أي الثلاثمائة والسـتين التي تجلى عليكم كل يوم فيها الشـمس والقمر وسـائر الكواكب السـيارة على كر الدهور والأعوام، والشـهور والأيام، على نظام لا ينحل، ومسـير لا يتغير ولا يختل، وذكرها يدل قطعاً على المغارب لأنها تختلف بها، وأعاد الصـفة معها تنبيهاً على وضـوح دلاتها بما فيها مما السـياق من الاصـطفاف الدال على حسـن الائتلاف، وللدلالة على البعث بالآيات بعد الغياب.

ولما كانت المشـــارق تقتضـــي الفيض والإظهار، أتبع ذلك نتيجته بما من شـــأنه الشـــروق والغروب ولو بمجرد الخفاء والظهور، فقال مؤكداً مع لفت الكلام إلى التكلم في مظهر العظمة تنبيهاً على أن فعلهم فعل من ينكر ما للنجوم من الزينة وما تدل عليه من عظمته ســـبحانه وتعالى، وفخم التعبير عن الزينة بتضـعيف الفعل لمثل ذلك: {إنا زينا} أي بعظمتنا التي لا تدانى {السماء} ولما كانوا لا يرون إلا ما يليهم من السماوات، وكانت زينة النجوم ظاهرة فيها قال: {الدنيا} أي التي هي أدنى السماوات إليكم.

ولما أشـير إلى أن الصـف زينة في الباطن باتحاد القصـد كما أنه زينة في الظاهر بحسـن الشـكل وبديع الرصـف، زيد في التنبيه على ذلك بإعادة ما فهم من «زينا» في قوله: {بزينة الكواكب *} أي بالزينة التي للنجوم النيرة البراقة المتوقدة الثابتة في محالها- قارة أو مارة- المرصـــعة في الســـماء ترصيع المسامير الزاهرة كزهر النور المبثوث في خضـرة الرياض الناضـرة، فهي مع عدم التنوين والخفض إضـــافة بيانية كثوب خز، ومن نوّن الزينة فإن خفض الكواكب فعلى البدل، أي بالكواكب التي هي زينة، وإن نصـــب فعلى المدح بتقدير أعني، أو على أنه بدل اشتمال من السماء، أي كواكبها، إما بكونها فيما دونها من الجو فبظن أنها فيها، أو يكونها فيها من جانبها الذي يلينا، أو بكونها تشـــف عنها وإن كان بعضـــها فيما هو أعلى منها، وزينتها انتظامها وارتسامها على هذا النظم البديع في أشكال متنوعة وصور مستبدعة ما بين صـغار وكبار، منها ثوابت ومنا سيارة وشـوارق وغوارب-

إلى غير ذلك من الهيئات التي لا تحصـــــى، ولا حد لها عند العباد العجزة فيستقصى.

ولما كان كون الشــــيء الواحد لأشـــياء متعددة أدل على القدرة وأظهر في العظمة، قال دالاً بالعطف على غير معطوف عليه ظاهر على مقدر يدل على أن الزينة بالنجوم أمر مقصود لا اتفاقي: {وحفظاً} أي زيناها بها للزينة وللحفظ {من كل شـيطان} أي بعيد عن الخير محترق. ولما كان القصــد التعميم في الحفظ من كل عاتٍ سـواءٍ كان بالغاً في العتو أو لا قال: {مارد *} أي مجرد عن الخير عاتٍ في كل شـر سـواء كان بالغاً في ذلك أقصـى الغايات أو كان في أدنى الدرجات كضارب وضراب.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 13]

{لَا يَسَّـــمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِـــبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِـــهَابٌ ثَاقِبٌ (10) فَاسْـتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَـدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (11) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13)}

ولما كان المراد في سـورتي النسـاء والحج ذم الكفرة بفعل ما ليس في كونه شـراً لبس، وبوضـع النفس باتباع ما لا شـك في دناءته ببعده عن الخير بعد الإخفاء به، عبر بالمريد للمبالغة، وكما أنه حرس السـماء المحسـوسـة بما ذكره سـبحانه وتعالى فكذلك زين عز وجل قلوب الأولياء التي هي كالسـماء لأراضـي أجسـامهم بنجوم المعارف، فإذا مسـهم طيف من الشـيطان تذكروا فرشقته شهب أحوالهم ومعارفهم وأقوالهم. ولما تشوف السامع إلى معرفة هذا

الحفظ وثمرته وبيان كيفيته، استأنف قولاً: {لا يسمعون} أي الشياطين المفهومون من كل شيطان، لا يتجدد لهم سمع أصلاً، قال ابن الجوزي: قال الفراء: {لا} هنا كقوله «كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به» ويصلح في {لا} على هذا المعنى الجزم، والعرب تقول: ربطت في شيء لا ينفلت- انتهى. ويؤخذ من التسوير بكل ثم الجمع نظراً إلى المعنى، والإفراد لضمير الخاطف وللخطفة أنهم معزولون عن السمع جمعهم ومفردهم من الجمع، وأن الخطف يكون- إن اتفق- في الواحد لا الجمع ومن الواحد لا الجمع، وللكلمة وما حكمها لا أكثر، وإليه يشير حديث الصحيح «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني» وأكد بعدهم بإثبات حرف الغاية، فقال مضمناً {سمع} بعد قصره معنى «انتهى» أو «أصغى» ليكون المعنى: لا ينتهي سمعهم أو تسمعهم أو إصغاؤهم {إلى الملإ} أي الجمع العظيم الشريف، وأوضحت هذا المعنى قراءة من شدد السين والميم بمعنى يتسمعون، أي بنوع حيلة، تسمعاً منتهياً إلى ذلك، وهو يفهم أنهم يتسمعون، ولكن لا ينتهي تسمعهم إلى ما ذكر، بما أشار إليه الإدغام، ويشير أيضاً إلى أنهم يجتهدون في إخفاء أمرهم، وأفرد الوصف دلالة أيضاً على أن العطف يكون من واحد لا من جمع فقال: {الأعلى} أي مكاناً ومكانة بحيث يلمؤون العيون بهجة والصدور هيبة.

ولما كان التقدير: لأنهم يطردون طرداً قوياً، دل عليه بالعاطف في قوله: {ويقذفون} أي الشياطين يرمون رمياً وحياً شديداً يطردون به، وبني للمفعول لأن النافع قذفهم لا تعيين قاذفهم، مع أنه أدل على القدرة الإلهية عزت

وجلت {من كل جانب *} أي من جوانب السماوات بالشهب إذا قصدوا السماع بالاستراق {دحوراً} أي قذفاً يردهم مطرودين صاغرين مبعدين، فهو تأكيد للقذف بالمعنى أو مفعول له أو حال.

ولما كان هذا ربما سبباً لأن يظن ظان أنهم غير مقدور عليهم في غير هذه الحالة بغير هذا النوع أخبر أنهم في قبضته، وإنما جعل حالهم هذا فتنة لمن أراد من عباده، فقال معبراً باللام التي يعبر بها غالباً عن النافع تهكماً بهم: {ولهم عذاب} أي في الدنيا بهذا وبغيره، وفي الآخرة يوم الجمع الأكبر {واصب *} أي دائم ممرض موجع كثير الإيجاع مواظب على ذلك ثابت عليه وإن افترق الدوامان في الاتصال والعظم والشدة والألم.

ولما ثبت بهذا حراسة القرآن بقدرة الملك الديان عن لبس الجان، وكان بعضهم مع هذا يسمع في بعض الأحايين ما أراد الله أن يسمعه ليجعله فتنة لمن أراد من عباده مع تميز القرآن بالإعجاز، استثنى من فاعل {يسمعون} قوله: {إلا من خطف} ودل على قلة ذلك بعد إفراد الضمير بقوله: {الخطفة} أي اختلس الكلمة أو أكثر، مرة من المرات منهم، ودل على قوة انقضاض الكواكب في أثره بالهمزة في قوله: {فأتبعه} مع تعديه بدونها، أي تبعه بغاية ما يكون من السرعة حتى كأنه يسوق نفسه ويتبعها له كأن الله سبحانه وعز شأنه هيأها لئلا تنقض إلا في أثر من سمع منهم حين سماعه سواء لا يتخلف {شهاب} أي شعلة النار من الكوكب أو غيره {ثاقب *} أي يثقب ما صادفه من جني وغيره وإن كان الجني من نار فإنه ليس ناراً خالصة، وعلى التنزل فربما كان الشيء الواحد أنواعاً بعضها أقوى من بعض، فيؤثر أقواه

في أضـــعفه كالحديد، وتارة يخطئ الجني وتارة يصـــيبه، وإذا أصـــابه فتارة يحرقه فيتلفه وتارة يضعفه.

ولما كان المقصـــود من هذا الكتاب الأعظم بيان الأصـول الأربعة: التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضـــاء والقدر، ودل ســـبحانه بهذه المذكورات على وجوده وكمال علمه وتمام قدرته على الأفعال الهائلة وبديع حكمته اللازم منه إثبات وحدانيته تفصـــيلاً لبعض إجمال {أو ليس الذي خلق الســـماوات والأرض} فكان ما دونها من الأفعال أولى، ســـبب عن ذلك لإثبات الحشـــر الذي أخبر به هذا القرآن الذي حرســـه عن تلبيس الجان بزينة الكواكب التي أنشـأ منها الشـهب الثواقب قوله تهكماً بهم: {فاسـتفتهم} أي سـلهم أن يتفتوا بأن يبينوا لك ما تســـألهم عنه من إنكارهم البعث، وأصـــله من الفتوة وهي الكرم: {أهم أشـــد} أي أقوى وأشـــق وأصـــعب {خلقاً} أي من جهة إحكام الصـنعة وقوتها وعظمها {أم من} ولما كان المراد الإعلام بأنه لا شـيء من الموجودات إلا وهو خلقه ســـبحانه، عبر بما يدل على ذلك دون ذكرنا، وليكون أعم، وحـذف المفعول لأنـه مفهوم، ولئلا يلبس إذا ذكر ضـــمير المستفتين، فقال: {خلقنا} أي من هذه الأشياء التي عددناها من الحي وغيره من الجن الذين أعطيناهم قدرة التوصـــل إلى الفلك وغيرهم، وعبر ب «من» تغليباً للعاقل من الملائكة وغيرهم مما بين السماوات والأرض.

ولما كان الجواب قطعاً أن هذه المخلوقات أشـــد خلقاً منهم وأنهم هم من أضـــعف الخلائق خلقاً، قال دالاً على إرادة التهكم بهم في الســـؤال، مؤكداً إشـــارة إلى أن إنكارهم البعث لاســـتبعادهم تمييز التراب من التراب يلزم منه

إنكار ابتداء الخلق على هذا الوجه: {إنا خلقناهم} أي على عظمتنا {من طين} أي تراب رخو مهين {لازب *} أي شـــديد اختلاط بعضـــه ببعض فالتصـق وضـمر وتضـايق وتلازم بعضـه لبعض، وقل واشـتد ودخل بعض التراب المنتثر من بعض، قال ابن الجوزي: قال ابن عباس رضـــي الله عنهما: هو الطين الحر الجيد اللزق.

وإنما كانوا من طين لأن أباهم آدم كان منه من غير أب ولا أم، فصــــاروا بهذا التقدير بعض الطين الذي هو بعض خلقه الذي عدده قبل ذلك سبحانه الذاتية التي لا يمتنع عليها مقدور، ولا يعجزها مأمور، فدل ابتداء خلقهم وخلق ما هو أشـــد منهم وأعظم على القدرة على إعادتهم قطعاً بل بطريق الأولى من غير وجه، وحسن هذا الاستفتاء كل الحسن ختم الكلام قبله بمن بلغوا الســماء تكبراً وعلواً، وهموا بما لم ينالوا تجبراً وعلواً، وســلط عليهم ما يردهم مقهورين مبعدين مدحورين، واستثنى منهم من {خطف} ليعلم أنه غير محال ما تعلقت به منهم الآمال، هذا مع ذكره في خلقهم من الطين اللازب الذي من شأنه الرسوب لثقله والسفول كما أن من شأن من ختم بهم ما قبله العلو لخفتهم والصعود.

ولما كان من المعلوم قطعاً أن المراد بهذا الأمر بالاستفتاء إنما هو التبكيت لأن من المعلوم قطعاً أن الجواب: ليســوا أشــد خلقاً من ذلك، فليس بعثهم ممتنعاً، وليســت غلبتهم لرســول الواحد القهار– الذي حكمه في هذا الوحي بإظهاره على الدين كله– بجائزة أصـلاً، نقلاً ولا عقلاً، بوجه من الوجوه، فلا شـــبهة لهم في إنكاره ولا في ظنهم أنهم يغلبون رســـولنا، بل هم في محل

عجب شـــديد في إنكاره وظنهم أنهم غالبون في الدنيا، عبر عن ذلك بقوله، مسنداً العجب إلى أجلّ الموجودات أو أجلّ المخلوقات تعظيماً لم بمعنى أنه قول يستحق أن يقال فيه: أنه لا يدري ما الذي أوقع فيه وكان سبباً لارتكابه، فقال: {بل عجبت} بضـــم التاء على قراءة حمزة والكســـائي لفتاً للقول من مظهر العظمة للتصـريح بإسـناد التعجب إليه سـبحانه إشـارة إلى تناهي هذا العجب إلى حد لا يوصـــف لإســـناده إلى من هو منزه عنه، وبفتحها عند الباقين أي من جرأتهم في إنكارهم البعث ولا ســـيما وقد دل عليه القرآن في هذه الأساليب الغريبة والوجوه البديعة العجيبة التي لا يشك فيها من له أدنى تصـــور، وقد كان النبي صـــلى الله عليه وســـلم ظن كما هو اللائق أنه لا يسمع القرآن أحد إلا آمن به، قال القشيري: وحقيقة التعجب تغير النفس بما خفي فيـه الســـبب مما لم تجر العـادة بحدوث مثلـه، ومثـل هـذا حـديث الصـحيحين عن أبي هريرة رضـي الله عنه أنه صـلى الله عليه وسـلم قال لأم سليم وأبي طلحة رضي الله عنهما:

»ضـــحك- وفي رواية: عجب- الله من فعالكما الليلة«، وحديث البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً: «عجب ربنا من أقوام يقادون إلى الجنة في الســلاســل» ومثله كثير، والمعنى في الكل التنبيه على عظم الفعل وأنه خارق للعادة، ويجوز أن يكون المعنى أنهم لم ينكروه لقلة الدلائل عليه، بل قد أتى من دلائله ما يعجب إعجاباً عظيماً من كثرته وطول الأناة في مواترته {ويســـخرون *} أي حصـــل لك العجب والحال أنهم يجددون السخرية كلما جئتهم بحجة {وإذا ذكروا} أي وعظوا من أيّ واعظ كان بشيء

هم به عارفون جداً يدلهم على البعث مثل ما يذكرون به من القدرة، مع أنه لا يجوز في عقل عاقل منهم أن أحداً يدع مَن تحت يده بلا محاسـبة {لا يذكرون *} أي لا يعملون بموجب التذكير.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 19]

{وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)}

ولما ذكر إعراضـهم عن المسموع، أتبعه إعراضـهم عن المرئي فقال: {وإذا رأوا آية} أي علامة على صـدق الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وغيره {يستسخرون *} أي يطلبون السخرية بها بأن يدعو بعضهم بعضاً لذلك من شدة استهزائهم.

ولما كان إنكارهم للبعث ولو صـدر مرة واحدة في الشـناعة والعظم والقباحة مثل تجديدهم للسخرية كلما سمعوا آية والمبالغة فيها لأن دلائله من الظهور والوضـوح بمكان هو في غاية البعد عن الشـكوك، دل على ذلك بالتعبير بالماضي فقال: {وقالوا} أي ما هو غاية في العجب: {إن} أي ما {هذا} أي الذي أتانا به من أمر البعث وغيره مما شاهدناه أو أخبرنا به {إلا سحر} أي خيال وأمور مموهة لا حقائق لها {مبين *} أي ظاهر في نفسـه ومظهر لسخريته ثم خصـوا البعث بالإنكار: {أإذ متنا} وعطفوا عليه ما هو موجب عندهم لشدة الإنكار فقالوا: {وكنا} أي كوناً هو في غاية التمكن {تراباً} قدموه

لأنه أدل على مرادهم لأنه أبعد عن الحياة {وعظاماً} كأنهم جعلوا كل واحد من الموت والكون إلى الترابية المحضة والعظامية المحضة أو المختلطة منهما مانعاً من البعث، وهذا بعد اعترافهم أن ابتداء خلقهم كان من التراب مع أن هذا ظاهر جداً «ولكن عقول ضلها باريها» ثم كرروا الاستفهام الإنكاري على قراءة من قرأ به زيادة في الإنكار فقالوا: {أإنا لمبعوثون *}.
ولما كان المعنى: أيثبت بعثنا، عطفوا عليه قولهم مكررين للاستفهام الإنكاري تأكيداً لزيادة استبعادهم حتى أنهم قاطعون بأنه محال فقالوا قولاً واهياً: {أو آباؤنا} أي يثبت بعثنا وكذا آباؤنا وزادوا في الاستبعاد بقولهم: {الأولون *} اي الذين طال مكثهم في الأرض تحت أطباق الثرى وانمحقت أجزاؤهم بحيث لم يبق لهم أثر ما، ومرت الدهور ولم يبعث أحد منهم يوماً من الأيام، يدلنا بعثه على ما يدعي من ذلك.
ولما بالغوا هذه المبالغات في إنكاره بعد قيام البراهين في هذه السورة وغيرها على جوازه بل وجوبه عادة، أمره بأن يجيبهم بما يقابل ذلك فقال تعالى: {قل نعم} أي تبعثون على كل تقدير قدرتموه، وذكر حالهم بقوله: {وأنتم داخرون *} أي مكرهون عليه صاغرون ذليلون حقيرون. ثم سبب عن الوعد بتحتم كونه ما يدل على أنه غاية في الهوان فقال: {فإنما} أي يكون ذلك بسبب أنكم تزجرون فتقومون، والزجرة التي يقومون بها إنما {هي زجرة} أي صيحة، وأكد ما يفهمه من الوحدة لأجل إنكارهم تصريحاً بذلك وتحقيراً لأمر البعث في جنب قدرته سبحانه وتعالى فقال: {واحدة} وهي الثانية التي كانت الإماتة لجميع الأحياء في آن واحد بمثلها، وأصل الزجر الانتهار ويكون لحث أو

منع، وإنما يكون ذلك للمقدور عليه فعل ما يغضـــب الزاجر، فلذلك ســـمى الصيحة زجرة.

ولما كان هذا الكلام مؤذناً بالغضــــب، حققه بصــــرف الكلام عن خطابهم جعلاً لهم بمحل البعد وتعميماً لغيرهم، فقال معبراً بالفاء المســـببة المعقبة وأداة المفأجاة: {فإذا هم} أي جميع الأموات بضمائرهم وظواهرهم القديم منهم والحديث أحياء {ينظرون *} أي في الحال من غير مهلة أصـــلاً، ولا فرق بين من صار كله تراباً ومن لم يتغير أصلاً، ومن هو بين ذلك، ولعله خص النظر بالذكر لأنه لا يكون إلا مع كمال الحياة، ولذلك قال صـــلى الله عليه وسلم: «إذا قبض الروح تبعه البصر» وأما السمع فقد يكون لغير الحي لأنه صلى الله عليه وسلم قال في الكفار من قتلى بدر: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» وشاهدت أنا في بلاد العرقوب المجاورة لبانياس من بلاد الشام شجرة شـــوك يقال لها الغبيراء متى قيل عندها «هات لي المنجل لأقطع هذه الشجرة» أخذ ورقها في الحال في الذبول– فالله أعلم ما سبب ذلك.

▲ تفسير الآيات رقم [20– 28]

{وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْــلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) احْشُــرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِــرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْــئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَــرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26) وَأَقْبَلَ بَعْضُــهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28)}

ولما حصــل الغرض من تصــوير حالهم بهذا الفعل المضــارع، عطف عليه بصيغة المضي التي معناها الاستقبال إعلاماً بتحقق الأمر تحقق ما مضى وكان، وتحققه مع القيام ســواء من غير تخلف ولا تخلل زمان أصــلاً فقال: {وقالوا} أي كل من جمعه البعث من الكفرة معلمين بما انكشـف لهم من أنه لا ملازم لهم غير الويل: {يا ويلنا} اي يا من ليس لنا نديم غيره {هذا يوم الدين *} أي الجزاء لكل عامل.

ولما كان قولهم هذا إنما هو للتحسـر على ما فاتهم من التصـديق النافع به، زادوا في ذلك بقولهم يخاطب بعضهم بعضاً بدلاً أو وصفاً بعد وصف دالين بإعادة اسم الإشـارة على ما داخلهم من الهول: {هذا يوم الفصـل} أي الذي يفصـل فيه بين الخصـوم، ثو زادوا تأسفاً وتغمماً وتلهفاً بقولهم، لافتين القول عن التكلم إلى الخطـاب لأنـه أدل على ذم بعضــــهم لبعض وأبعـد عن الإنصاف بالاعتراف: {الذي كنتم} أي يا دعاة الويل جبلة وطبعاً {به تكذبون *} وقدموا الجار إشـارة إلى عظيم تكذيبهم به، فبينما هم في هذا التأسـف إذ برز النداء بما يهدئ قواهم، ويقر قلوبهم وكلاهم، لمن لا يعصـــــون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون من الملائكة الشـداد الغلاظ بإذلالهم وإصـغارهم، ولبيان السرعة لذلك من غير تنفيس أسقط ما يدل على النداء من نحو قوله: فقيل الملائكة، أو فقلنا، أو فبرز النداء من جانب ســـــلطاننا- ونحو هذا: {احشـروا} أي اجمعوا بكره وصـغار وذل أيها الموكلون بالعباد من الأجناد، وأظهر تعريفاً بوصــفهم الموجب لحتفهم فقال: {الذين ظلموا} أي بما كانوا فيه في الدنيا بوضـــع الأشـياء في غير محالها من الخبط الذي لا يفعله إلا

من هو في أشـد الظلام {وأزواجهم} أي أتباعهم الذين اسـتنوا بهم في ذلك الضـرب من الظلم وأشـباههم فيه من الجن وغيرهم ومن أعانهم ولو بشـطر كلمة أو رضـى فعلهم لتصـير كل طائفة على حدة فيصـير بعضـهم يبكت بعضـاً وبعضـهم يشـتم بعضـاً {وما كانوا} أي بما دعتهم إليه طباعاتهم المعوجـة {يعبـدون *} أي مواظبين على عبـادتـه رجـاء منفعتـه تحقيقـاً لخسـارتهم بتحقق اعتمادهم على غير معتمد، وهو يعم المعبود حقيقة أو مجازاً بالتزيين «ومن سبقت له الحسنى» مستثنى بآية الأنبياء، وأشار إلى سـفول رتبة معبوداتهم وتسـفيه آرائهم بانتحال الأذى بقوله صـارفاً الأسـلوب من المتكلم ولو بمظهر العظمة إلى أعظم منه: {من دون الله} أي الذي تفرد بنعوت العظمة وصفات الكمال، والمراد الذين رضوا بعبادتهم لهم ولم ينكروا عليهم ذلك ويأمروهم بتوحيد الله.

ولما كانوا قد سـلكوا في الدنيا طريق الشـقاء المعنوية اسـتحقوا أن يلزموا في القيامة سـلوك طريقه الحسـية، فلذلك سـبب عن الأمر بحشـرهم قوله تهكماً بهم وتحسـيراً لهم: {فاهدوهم} أي دلوهم دلالة لا يرتابون معها ليعرفوا- مع ما هم فيه من الإكراه على سـلوكها- مآلهم، فيكون ذلك أعظم في نكدهم؛ قال الرازي: وأصل الهداية التقدم، والعرب تسمي السابق هادياً، يقال: أقبلت هوادي الخيل أي أعناقها، والهادية: العصـى- لأنها تتقدم ممسـكها، ونظر فلان هدى أمره أي جهته.

ثم أشـار إلى طول وقوفهم وسـوء مقامهم بقوله بأداة الانتهاء: {إلى صـراط الجحيم *} أي طريق النار الشـديدة التوقد الواضـح الذي لا لبس عندهم بأنه

يشـــترطهم فيؤديهم إليها، وخص هذا الاســـم إعلاماً بشـــديد توقدها وعظيم تأججها، وبعد قعرها وضـــــخامة غمرتها، بتراكم بعضـــــها فوق بعض وقوة اضطرامها، وعلو شأنها واصطلاحها، وصلابة اضطرابها وتحرقها واشتمالها على داخليها وتضـــايقها، وفيه تهكم بهم في كونهم على غير ما كانوا عليه في الدنيا من التناصر والتعاضد.

ولما كان المقصــود من تعريفهم طريق النار أولاً ازدياد الحسـرة، صـرح بما أفهمه حرف الغاية من طول الحبس فقال: {وقفوهم} أي احبسوهم واقفين بعد ترويعهم بتلك الهداية التي سـببها الضـلال، فكانت ثمرتها الشـقاوة، وإيقافهم يكون عند الصـــراط– نقله البغوي عن المفســرين، قال: لأن الســـؤال عند الصـراط. ثم علل ذلك بقوله: {إنهم مسـؤولون *} وجمع عليهم الهموم بهذه الكلمة لتذهب أوهامهم كل مذهب، فلا تبقى حسرة إلا حضرتهم، ولا مصيبة إلا علت قلوبهم فقهرتهم، فإن المكلف كله ضـــعف وعورة، فموقف الســـؤال عليه أعظم حسرة.

ولما أوقفوا هذا الموقف الذليل، قد شـــغلهم ما دهمهم من الأســـف عن القال والقيل، نودوا من مقام السـطوة، وحجاب الجبروت والعزة، زيادة في تأسـيفهم وتوبيخهم وتعنيفهم لفتاً عن ســـياق الغيبة إلى الخطاب دلالة على أعظم خيبة: {ما لكم} أي أيّ شـــيء حصـــل لكم فشـــغلكم وألهاكم حال كونكم {لا تناصـــرون *} أي ينصـــر بعضـــكم بعضـــاً، ويتســـابقون في ذلك تســـابق المتناظرين فيه أولي الجد والشـــكيمة والنخوة والحمية ولو بأدنى التناصـــر– بما يفهمه إسـقاط التاء، أو بعد تمكث وإعمال حيلة– بما أشـارت إليه قراءة

البزي عن ابن كثير بالمد والإدغام: أين قولكم في بدر {نحن جميع منتصر} معبرين بما دل على ثبات المناصرة.

ولما كان قد دهمهم من الأمر ما أوجب إبلاسهم، وأحدّ إدراكهم وإحساسهم، أشـــار إلى ذلك بإحلالهم في محل الغيبة المؤذنة بالإبعاد بأن قال مضــرباً عما تقديره: إنهم لا يتناصرون: {بل هم} وزاد في تعظيم ذلك الوقت والتذكير به فقال: {اليوم مستسلمون *} أي ثابت لهم استسلامهم ثباتاً لا زوال له، قد خذل بعضـــهم بعضـــاً موجدين الإســـلام أي الانقياد إيجاد من كأنه يطلبه ويعظم فيه رغبته رجاء أن يخفف ذلك عنهم.

ولما أخبر بأنهم سئلوا فلم يجيبوا، كان ربما ظن أنهم أخرسوا فنبه على أنهم يتكلمون بما يزيد نكدهم، فقال عاطفاً على قوله {وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين} إشارة إلى إقبالهم على الخصام، حين تمام القيام، والأخذ في تحريك الأقدام، بالسير على هيئة الاجتماع والازدحام، إلى مواطن النكد والاغتمام، ولم يعطفه بالفاء لأنه ليس مســـبباً عن القيام، ولا عن الإيقاف للســـؤال، بخلاف ما يأتي عن أهل الجنة: {وأقبل بعضـــهم} أي الذين ظلموا {على بعض} أي بعد إيقافهم وتوبيخهم، وعبر عن خصـــامهم تهكماً بهم بقوله: {يتساءلون *} أي سؤال خصومة.

ولما كان كأنه قيل: عما ذا؟ أجيب بقوله: {قالوا} أي الأتباع لرؤســـائهم مشـــيرين بأداة الكون إلى المداومة على إضـــلالهم مؤكدين لأجل تكذيب الرؤساء لهم: {إنكم كنتم} ولما كانوا يستغوونهم ويغرونهم بما تقبله عقولهم على ما جرت به عوائدهم بحيث يقطعون بذلك قطع من كان يريد الذهاب

إلى أمر فتطير بالسانح والبارح، فرأى ما يحب فأقدم عليه وهو قاطع بحصوله، أشاروا إلى ذلك بقوله: {تأتوننا} مجاوزين لنا {عن اليمين *} أي عن القوة والقهر والغلبة والسلطان في حملكم لنا على الضلال، ففعلنا في طاعتكم فعل من خرج لحاجة، فرأى ما أوجب إقدامه عليها، فهذا كان سبب كفرنا، وكان هذا التفاؤل مما نسيت العرب كيفيته لما نسخه الشرع كما وقع في الميسر فاضطرب كلام أهل اللغة في تفسيره، قال صاحب القاموس: البارح من الصيد ما مر من ميامنك إلى مياسرك، وسنح الظبي سنوحاً ضد برح. وقال ابن القطاع في كتاب الأفعال: وسنح الشيء سنوحاً: تيسر، والطائر والظبي: جرى عن يمينك إلى يسارك وهو يتيمن به، وقال في مادة «برح»: وبرح الطائر والظبي وغيرهما ضد سنح، وهو ما أراك ميامنه، وأهل الحجاز يتشاءمون به، وغيرهم يتيمنون به ويتشاءمون بالسانح، وقال ابن مكتوم في الجمع بين العباب والمحكم في مادة «برح»: والبارح خلاف السانح، وقد برح الظبي- إذا والاك مياسره يمر من ميامنك إلى مياسرك، والعرب يتطير بالبارح وفي مادة «سنح»: والسانح ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك وقيل: السانح ما والاك ميامنه والبارح ما والاك مياسره وقيل السانح ما يجيء عن يمينك فتلي مياسره مياسرك والعرب تختلف في عيافة ذلك، فمنهم من يتيمن بالسانح ويتشاءم بالبارح، وعلى هذا المثل: من لي بالسانح بعد البارح، قال في القاموس: أي بالمبارك بعد المشؤوم، ومنهم من يتشاءم بالسانح، وقال الإمام أبو عبد الله القزاز في مادة «سنح»: والسانح من الطير والظباء

وغيرهما هو الذي يأتيك عن يمينك أخذاً على يسارك فيوليك مياسره فيمكنك رميه وأكثر العرب يتيمن به وقال في مادة «برح» : والبارح من الطير والظبي هو خلاف السانح وهو الذي يلقاك وشمائله عن شمائلك، وهو مما يتيمن به أهل العالية، ويتشاءمون بالسانح، والسانح هو الذي يلقاك وميامنه عن ميامنك، وهو مما يتيمن به أهل نجد ويتشاءمون بالبارح، والبارح أبين في التشاؤم من السانح، لأن البارح هو الذي يأخذ عن يسارك إلى يمينك فلا يمكنك طعنه، فيتشاءم به لتعذره على الطاعن أو الرامي، ولذلك قال أبو داود: قلت: لما برز أمن فيه كذب العير وإن كان برح، يقول: كذب إذ طمع أن ينجو، وإن كان قد برح وصعب على إمكان طعنه، وتطير ومن تيمن به بسلامته وخلاصة من الطاعن، وتطير من تيمن بالسانح بأنه يأتي من ميامنك إلى مياسرك، فيمكنك من طعنه، ومن تشاءم به تطير بقلة سلامته ووقوعه فيما يكره، ومن الطير الجابه وهو الذي يلقاك مواجهة، ومنه الناطح أيضاً ومنه القعيد، وهو الذي يأتيك من خلفك- انتهى ما وقفت عليه من كلام أهل اللغة في ذلك فافهم، والظاهر كما تفهمه الآية أن العرب مطبقة على أن ما أتى عن اليمين كان مباركاً سواء كان أتى من قدام مواجهاً لك ومر إلى جهة الخلف فوليتك ميامنه، أو أتى من الجانب الأيمن سواء كان ابتداء إتيانه من خلف أو لا فمر من قدامك عرضاً إلى جهة اليسار، فوليتك في الحالتين مياسره، وما أتى من جهة اليسار على ضد ذلك كان مشؤوماً، وكأنهم اختلفوا في التسيمة فأكثرهم سمى الأول سانحاً من السنح بالضم وهو اليمن والبركة، وهو من قولهم: سنح لي رأي: تيسر- لشهرة معنى اليمن

عندهم في ذلك، والثاني بارحاً من البرح، وهو الشـدة والشـر لشـهرة هذا المعنى عندهم في مادة برح، وبعهضم عكس فسمى الأول بارحاً من البرحة، وهي الناقة تكون من خيار الإبل لشـهرة ذلك عندهم، وسـمى الثاني سـانحاً من قولهم: سنحه عما أراد: صرفه، وسنح بالرجل وعليه: أخرجه أو أصابه بشر، فمن الاختلاف في التسمية أتى الخلاف، ولذلك عبر سبحانه وتعالى بالمعنى دون الاسـم، لأن كلامه سـبحانه لا يخص قوماً دون غيرهم، وأما التعليل بإمكان الطعن والرمي فلا معنى له لأن الإنسـان ينفتل عن هيئة وقوفه بأدنى حركة فينعكس بالنسبة إليه أمر المياسر والميامن، ويتغير حال الطعن والرمي، هذا إذا سلم أن الطعن والرمي يعسر من جهة المياسر على أنه غير مسـلم، ولو كان المعنى دائراً عليه لما اختلف فيه إلا بالنسـبة إلى الأعسر وغيره، لا بالنسبة إلى أهل العالية وغيرهم، وأما البيت الذي استدل به فيمكن حمله على أن قائله كان في حاجة له لا بد له منها، فرأى البارح فلم يتطير منه ولج في أمره ذلك تكذيباً له فيما دل عليه عند العرب، وأما الجابه وغيره فأسـماء أخر لبعض أنواع كل من السـانح والبارح- والله أعلم، وقال أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي في كتابه الزينة: العيافة والقيافة والزجر نوع من الكهانة إلا أنه أخف في الكراهة وذلك أن الكاهن كان بمنزلة الحاكم وكان من الكهان من يعبد كما يعبد الصـنم، وكانوا سـدنة الأصـنام، قلت: والكاهن في اللغة من يقضي بالغيب وذلك هو غاية العلم، فهو وصف يدل على التوغل في العلم- انتهى، قال أبو حاتم: وسـمعت بعض أهل الأدب قال: الكاهن بالعبرانية العالم، وكانوا يسمون هارون عليه السلام كهناً

رباً، معناه عالم الرب، ثم قال: إن الكهانة والسحر كان عند المتقدمين نوعاً من العلم، فكان الساحر والكاهن اسمين محمودين، فلما جاء الله بالإسلام صار هذان الاسمان مذمومين عند المسلمين لما كشف لهم ما في ذلك من الشر، ثم قال: فأما العائف والقائف والزاجر فلم يكن سبيلهم كذلك- يعني كالكاهن في أنه ربما عبد، قال: وإنما كره لأنه كان يخبر بشيء غائب فكره كما كره أمر النجوم توقياً أن يكون مثل الدعوى في علم الغيب، والعائف هو الذي يعيف الطير ويزجرها ويعتبر بأسمائها وأصواتها ومساقطها ومجاريها، فإذا سمع صوت طائر أو جرى من يمينه إلى شماله أو من شماله إلى يمينه قضى في ذلك بخير أو بشر في الأمر الذي يريد أن يفعله، فإذا قضى فيه بشر تجنب ذلك الأمر، يقال: عاف يعيف- إذا فعل ذلك، ومعنى عاف أي امتنع وتجنب، يقال: عافت الإبل الماء- إذا لم تشرب، وكذلك يقال في غير الإبل الزاجر أيضاً: هو مثل العائف، يقال: يزجر أيضاً زجراً، وذلك أنه ينظر إلى الطير فيقضي فيها مثل العائف، فإذا رأى شيئاً كرهه رجع عن أمر يريد أن يشرع فيه أو حاجة يريد قضاءها، والزاجر معناه الناهي، فكأن الطير قد زجره عن ذلك الفعل، أو أن من عاف له زجره عن ذلك، ويكون المعنى الزجر أيضاً أنه إذا رأى منها شيئاً صاح بها وطردها، فكان طرده إياها زجراً لها، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:

»أقروا الطير على مكناتها«، قلت: إنهم كانوا إذا لم يروا سانحاً ولا بارحاً نفروا الطير لينظروا إلى أيّ جهة تطير- والله أعلم، وقال أبو حاتم: والأصل في هذا انهم كانوا يزجرون الطير ثم كانوا يزجرون الظبي والثعلب، وبصوت

الإنسان يستدلون بلفظه وبغير ذلك، ثم نسبت كلها إلى الطير فقيل: يتطير، أي يستدل بالطير، وروي عن الأصعمي قال: سألت ابن عون: ما الفال؟ فقال: هو أن تكون مريضاً فتسمع: يا سالم، وتكون باغياً فتسمع يا واجد، قال: وكان ابن سيرين يكره الطيرة ويحب الفال، وفي الحديث:

»أصدق الطير الفال» والفال مأخوذ من الفيال، وهي لعبة يتقامرون بها، كانوا يأخذون الدراهم فيخلطونها بالتراب ثم يجمعونه طويلاً ثم يقسمونه بنصفين ويتقارعون عليه، فمن أصابه القرعة اختار من القسمين واحداً، فلما كان المفايل يختار منهما ما أحب سمي الفال، لأنه يتفاءل بما يحبه، وكان هذا في العرب كثيراً، وأكثره في بني أسد، قال الأصمعي: أخبرني سعد بن نصر أن نفراً من الجن تذاكروا عيافة بني أسد فأتوهم فقالوا: ضلت لنا ناقة، فلو أرسلتم معنا من يعيف، فقالوا لغليم لهم: انطلق معهم، فاستردفه أحدهم، ثم ساروا فلقيتهم عقاب كاسرة إحدى جناحيها، فاقشعر الغليم فبكى فقالوا له: ما لك؟ فقال: كسرت جناحاً، ورفعت جناحاً، وحلفت بالله صراحاً، ما أنت بإنسي ولا تبغي لقاحاً. وكانوا يسمون الذي يجيء عن يمينك فيأخذ إلى شمالك سانحاً، والذي يجيء عن يسارك فيأخذ غلى يمينك بارحاً، والذي يستقبلك ناطحاً وكافحاً، والذي يجيء من خلفك قعيداً، والذي يعرض في كل وجه متيحاً، فمنهم من كان يتشاءم بالبارح ويتيمن بالسانح، ومنهم من كان يتيمن بالبارح ويتشاءم بالسانح، قال زهير:

جرت سنحاً فقلت لها أجيزي *** نوى مشمولة فمتى اللقاء

وقال الكميت:

ولا السانحات البارحات عشية *** أمر سليم القرن أم مر أعضب

وكانوا يزجرون بعضب القرن وصحته، والأعضب الذي له قرن واحد، وأما القائف فهو الذي يتبع الآثار ويعرفها ويعرف شـــبه الرجل في ولده، ويروى عن عوسجة ابن معقب القائف: قال: كنا تسرق نخلنا فنعرف آثارهم، فركبوا الحمر فعرفنا بمس أيديهم والعذوق، فكان القائف سمي قائفاً لأنه يقفو الأثر، يقال: قفا الأثر وقاف الأثر أي تبعه، قال الأصـمعي عن أبي طرفة الهذلي قال : رأى قائفان أثر بعير وهما منصـــرفان من عرفة بعد الناس بيوم أو يومين فقال أحدهما : ناقة، وقال الآخر : جمل، فاتبعاه فإذا هما به، فاطافا بـه فإذا هو خنثى، ويقال للرجل إذا كان فطناً عارفاً بالأمور : هو عائف وقـائف، وكـان قوم من العرب لا يتطيرون ولا يتهيبون الطيرة ويفتخرون بتركه ويعدون تركه شجاعة وإقداماً، قال بعض شعرائهم:

ولقد غدوت وكنت لا *** أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائم كالأيا *** من والأيامن كالأشائم

وقال آخر:

ولست بهياب إذا اشتد رحله *** يقول عداني اليوم واق وحاتم

ولكنه يمضي على ذاك مقدماً *** إذا صد عن تلك الهناة الختارم

الختارم: المطير، وقيل: العيافة والقيافة، الطرق والخط، وهو أيضـاً نوع من الكهانة، وهو أن يخط في الأرض خططاً في الطول، ثم يخط عليها خططاً في العرض، ثم يطرق بالحصـــى او بالشـــعير أو بخشـــبات، ولا يزال يخط ويمحو ويعيد ثم يتكهن عليه، ومن هذا الباب أيضـــــاً علم الكتف وهو أن

ينظر في كتف شاة فيحدث بأشياء تكون في العالم مثل الحروب والأمطار والرياح والجدب والخصب وغير ذلك، وهذا يقال له: الكتاف، كأنه أشتق له اسم من الكتف مثل العراف لأن العراف من جنس العيافة، والعيافة والعرافة، سواء، فهذه الأشياء كلها من السحر والكهانة والقيافة والعيافة والخط والطرق والكتف وما أشبهها، قد جاءت فيها الأخبار والروايات، ويطول الخطب بها، وهي كلها مكروهة حرام، فمنها ما جاء فيها التشديد مثل السحر، والكهانة، ومنها ما جاء في القليل منها الرخص والتخفيف مثل القيافة والعيافة والكتف- انتهى.

وهو مسلم له في القيافة، وأما غيرها فمنازع فيه، ثم قال: فأكثر هذه الأشياء أصولها من الأنبياء عليهم السلام، فإذا استعملت بعد النسخ وبعد ما جاء فيها النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم كانت حراماً تدعو إلى الكفر والتعطيل وغير ذلك من أنواع الفساد، ثم قال: وما كان من أمر مشركي العرب فقد درس دروساً لا يعرف ولا يحتاج إلى ذكر كيفيته إذ كان متلاشياً لا أثر له، ولكن لا يستغني الفقهاء والعلماء عن معرفته إذ كان له في القرآن ذكر، وإذ كان واجباً على العلماء تعلم ما في القرآن على حسب طاقتهم، والجهل به نقص عليهم- والله أعلم بالصواب.

▲ تفسير الآيات رقم [29- 37]

{قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ

بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)}

ولما أشار سبحانه بتسمية كلامهم هذا سؤالاً إلى أن مرادهم: فهل أنتم مغنون عنا شيئاً أو حاملون عنا جزءاً من العذاب؟ وكان كأنه قيل: بم أجاب الرؤساء بعد هذا القول من الأتباع؟ قيل: {قالوا بل} أي لم يكن كفرهم سبباً بل: {لم تكونوا مؤمنين *} أي عريقين في هذا الوصف بجبلاتكم فلذلك تابعتمونا فيما أمرناكم به لأنه كان في طبعكم، وهذا دليل على أن من لم يكن راسخاً في الإيمان كان منهم، ثم أكدوا هذا المعنى بقوله نافين لما أشاروا باليمين إليه: {وما كان} أي كوناً ثابتاً {لنا عليكم} وأعرقوا في النفي بقولهم: {من سلطان} أي فأكرهنا بذلك السلطان، إنما تبعتمونا باختياركم وهو معنى {بل كنتم} أي جبلة وطبعاً {قوماً} أي ذوي قوة وكفاية لما تحاولونه من الأمور {طاغين *} أي مجاوزين لمقاديركم غالين في الكفر مسرفين في المعاصي والظلم، ولذلك أنكم خلق لا تحتاجون فيه إلى كبير تحرك {فحق علينا} أي كلنا نحن وأنتم بسبب ذلك، وعبروا بما يدل على ندمهم فقالوا: {قول ربنا} أي الذي قابلنا إحسانه إلينا وتربيته لنا بالكفران، وقوله هو الحكم بالضلال لما في قلوبنا من القابلية له والإباء للإيمان، فالحكم بالعذاب.

ولما تصوروا ما صاروا إليه من الخطأ الفاحش عن الطريق الواضح، وعلموا أن مثل ذلك لا يتركه أحد إلا بقهر قاهر فتصوروا أنه ما قسرهم عليه إلا

حقوق الكلمة العليا علموا أنهم مثل ما صاروا إلى حكمها في الكفر يصيرون إلى حكمها في العذاب، فقالوا لما دهمهم من التحســـر مريدين بالتأكيد قطع أطماع الأتباع عما أفهمه كلامهم من أن الرؤسـاء يغنون عنهم شـيئاً: {إنا} أي جميعاً {لذائقون *} أي ما وقع لنا به الوعيد من سوء العذاب.

ولما قضـوا علالة التحسر والتأسف والتضـجر، رجعوا إلى إتمام ذلك الكلام فقالوا: {فأغويناكم} أي أضللناهم وأوقعناكم في الغي بسبب حقوق ذلك القول علينا، ثم عللوا ذلك بقولهم مؤكدين أيضـــاً لرد ما ادعاه الأتباع من أنه ما كان ســبب إغوائهم إلا الرؤســاء: {إنا} أي جميعاً {كنا غاوين *} أي في طبعنا الغواية، وهي العدول عن الطريق المثلى إلى المهالك.

ولما قال لهم الرؤســاء ما هو الحق من أمرهم مما أوجب الحكم باشـتراكهم، ســبب عنه قوله تعالى مؤكداً دفعاً لمن يتوهم اختصــاص العذاب بالســبب: {فإنهم} أي الفريقين بسبب ما ذكروا عن أنفسهم {يومئذ} أي يوم إذ كان هذا التقاول بينهم {في العذاب} أي الأكبر {مشتركون *} أي في أصله، وهم مع ذلك متفاوتون في وصفه على مقادير كفرهم كما كانوا متشاركين في السبب متفاوتين في شـــدتهم فيه ولينهم- هذا وقد قال البخاري في صـــحيحه في تفسـير حم السـجدة: وقال المنهال عن سـعيد: قال رجل لابن عباس رضـي الله عنهما: إني أجد في القرآن أشـياء تختلف علي قال {فلا أنســاب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} {وأقبل بعضـهم على بعض يتساءلون} {ولا يكتمون الله حديثاً} {والله ربنا ما كنا مشـركين} فقد كتموا في هذه الآية، وقال: {السـماء بناها} إلى قوله: {دحاها} فذكر خلق الســـماء قبل خلق الأرض، ثم قال

{أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين} إلى {طائعين} فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السـماء، وقال: {وكان الله غفوراً رحيماً} {عزيزاً حكيماً} {سميعاً بصيراً} فكأنه كان ثم مضى، فقال: {فلا أنساب بينهم} في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصـور فصـعق من في السـماوات ومن في الأرض، إلا من شاء الله فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وأما قوله {ما كنا مشركين} {ولا يكتمون الله حديثاً} فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشـركون: تعالوا نقول: لم نكن مشـركين، فنختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثاً، وعنده يود الذين كفروا- الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض، و {دحاها} أي أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله {دحاها} وقوله: خلق الأرض في يومين، فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السماوات في يومين، وكان الله غفوراً رحيماً، سمى نفسه ذلك، وذلك قوله، أي لم يزل كذلك، فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاًّ من عند الله.

وقال في سورة المرسلات: وسئل ابن عباس رضي الله عنهما {هذا يوم لا ينطقون} {والله ربنا ما كنا مشركين} {اليوم نختم على أفواههم} فقال: إنه ذو ألوان، مرة ينطقون ومرة يختم عليهم.

ولما أخبر سبحانه باشتراكهم، استأنف الإخبار بما يهول أمر عذابهم ويشير إلى عمومه في الدارين لكل من شـاركهم في الإجرام، فقال مؤكداً دفعاً لظن من ينكر القيامة وظن من يرى الإملاء للمجرم في الدنيا نعمة وينفي كونه نقمة، أو يفعل في التمادي في الإجرام فعل المنكر؛ {إنا} أي بما لنا من العظمة التي لا يفوتها شـيء {كذلك} أي مثل هذا الفعل العظيم الشـأن {نفعل} بهم– هكذا كان الأصل، ولكنه علق بالوصف تعميماً وتعليلاً فقال: {بالمجرمين *} أي كل قاطع لما أمر الله به أن يوصـل في الدنيا والآخرة، نمهل ثم نأخذ أخذاً عنيفاً يصير به المشتركون في الظلم أعداء يتخاصمون، ويحيل بعضهم على بعض ثم لا ينفعهم ذلك، بل نشارك بينهم في العقوبة، ثم علل تعذيبه لهم بقوله مؤكداً للتعجب منهم لأن فعلهم هذا أهل لأن ينكر لأن هذه الكلمة لا يصدق عاقل أن أحداً يستكبر عليها لأنه لا شيء أعدل منها: {إنهم كانوا} أي دائماً {إذ قيل لهم} أي من أيّ قائل كان: {لا إله} أي يمكن، وإذا نفي الممكن كان الموجود أولى فإنه لا يوجد إلا ما يمكن وجوده وإن كان واجباً {إلا الله} أي الملك الأعلى المباين لجميع الموجودات في ذاته وصفاته وافعاله كما هو الحق ليفردوه بالإلهية كما تفرد بالخالقية كما لا يخفى على من له أدنى مسكة بصفات الكمال، وقدم النفي لأن التحلية لا تكون إلا بعد التخلية {يسـتكبرون *} أي يوجدون الكبر عن الإقرار بهذا الحق الذي لا أعدل منه وعن متابعة الداعي إليه، اسـتكبار من هو طالب للكبر من نفسـه ومن غيره لما فيه من العراقة والعتو، فلم يكن لهم مانع من أبواب جهنم السبعة التي جعلت كل كلمة من هذه الكلمة مع قرينتها الشاهدة

بإرسـاله مانعة من باب منها وإلا كان في شـيء من سـاعات أيامهم– التي هي بعدد حروفهما أربعة وعشرون– خير ينجيهم من المكارة.

ولما أخبر أنهم اســـتكبروا على توحيد الإله، أتبعه الإخبار بأنهم تكلموا في رسوله صلى الله عليه وسلم بما لا يرضاه: فقال: {ويقولون} أي كل حين ما دلوا به على بعدهم عن الإيمان كل البعد بسـوقهم لقولهم ذلك في اسـتفهام إنكاري مؤكداً: {إئنا لتاركوا آلهتنا} أي عبادتها، وكان تأكيد أصـل الكلام للإشـارة إلى أن تكذيبهم صـادر منهم مع علمهم بأن كل عالم بحالهم يراهم جديرين بترك ما هم عليه لما جاء به صلى الله عليه وسلم، ولذلك أعلم بأن ما هم عليه عناد بسـوق تكذيبهم على وجه معلوم التناقض بالبديهة بقوله: {لشـاعر مجنون *} فإن الجنون لا نظام معه، والشـعر يحتاج إلى عقل رصين وقصد قويم، وطبع في الوزن سليم، أو للإشارة إلى أن إنكار المؤكد إنكار لغيره بطريق الأولى.

ولما كان مرادهم بذلك أن كلامه باطل، فإن أكثر كلام الشـاعر غلو وكذب وكلام المجنون تخليط، كان كأنه قال في جوابهم: إنه لم يجئ بشـرع ولا بجنون: {بل جاء بالحق} أي الكامل في الحقية.

ولما كان ما جاء به أهلاً لكونه حقاً لأن يقبل وإن خالف جميع أهل الأرض، وكان موافقاً مع ذلك لمن تقرر صـدقهم واشـتهر اتباع الناس لهم، فكان أهلاً لأن يقبله هؤلاء الذين أنزلوا أنفسهم عن أوج معرفة الرجال بالحق إلى حضـيض معرفة الحق على زعمهم بالرجال، فكان مآل أمرهم التقليد قال: {وصـدق المرسـلين *} أي الذين علم كل ذي لب أنهم أكمل بدور

أضــاء الله بهم الإكوان في كل أوان، وتقدم في آخر ســورة فاطر أنهم عابوا من كذبهم {وأقســـموا بـالله جهد أيمانهم لئن جاءهم أحد منهم ليؤمنن به فكذبوا} بأن كذبوا سيدهم بهذا الكلام المتناقض.

▲ تفسير الآيات رقم [38- 45]

{إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45)}

ولما وصـــلوا إلى هذا الحد من الطغيان، والزور الظاهر والبهتان، تشـــوف الســامع إلى جزائهم فاســتأنف الإخبار بذلك مظهراً له في أسـلوب الخطاب إيذاناً بتناهي الغضـــــب، فقال في قالب التأكيد نفياً لما يترجمونه من العفو بشـــفاعة من ادعوا أنهم يقربونهم زلفى، ووعظاً لهم ولأمثالهم في الدنيا فيما ينكرونه حقيقة أو مجازاً: {إنكم} أي أيها المخاطبون على وجه التحقير المجرمين {لذائقوا} أي بما كنتم تضيقون أولياء الله {العذاب الأليم *}.

ولما كان ســـبحانه الحكم العدل فلا يظلم أحداً مثقال ذرة فلا يزيد في جزائه شــيئاً على ما يســتحق مع أن له أن يفعل ما يشــاء ولا يكون فعله- كيفما كان- إلا عدلاً قال: {وما} أي والحال أنكم ما {تجزون} أي جزءاً من الجزاء {إلا ما} أي مثل ما. ولما كانوا مطبوعين على تلك الخلال السيئة، بين أنها كانت خلقاً لهم لا يقدرون على الانفكاك عنها بالتعبير بأداة الكون فقال: {كنتم تعملون *} نفياً لوهم من قد يظن أنهم فعلوا شيئاً بغير تقديره سبحانه.

ولما كان في المخاطبين بهذا من علم الله أنه سيؤمن، واستثنى من واو «ذائقوا» قوله مرغباً لهم في الإيمان مشيراً إلى أنهم لا يحملهم على الثبات على ما هم عليه من الضلال إلا غش الضمائر بالرياء وغيره، فهو استثناء متصل بهذا الاعتبار الدقيق: {إلا عباد الله} فرغبهم بوصف العبودية الذي لا أعز منه، وأضافهم زيادة في الاستعطاف إلى الاسم الأعظم الدال على جميع صفات الكمال، وزاد رغباً بالوصف الذي لا وصف أجلّ منه فقال: {المخلصين *}.

ولما خلصهم منهم، ذكر ما لهم فقال معظماً لهم بأداة البعد: {أولئك} أي العالو القدر بما صفوا أنفسهم عن أكدار الأهوية {لهم رزق معلوم} أي يعلمون غائبه وكائنه وآتيه وطعمه ونفعه وقدره وغبّه وجميع ما يمكن علمه من أموره، وليسوا مثل ما هم عليه في هذه الدار من كدر الأخطار {لا تدري نفس ماذا تكسب غداً} لأن النفس إلى المعلوم أسكن، وبالأنس إليه أمكن.

ولما كان أهل الجنة لا يأكلون تقوتاً واحتياجاً، بل تنعماً والتذاذاً وابتهاجاً، لأن أجسامهم محكمة مخلوقة للأبد، فهي غير محتاجة إلى حفظ الصحة قال: {فواكه} أي يتنعمون بها بما كدروا من عيشهم في الدنيا. ولما كان الذي هو نعيم الجسم لا يحمد غاية الحمد إلا مع العز الذي هو غذاء الروح قال: {وهم مكرمون *} بناه للمفعول إشارة إلى أن وجود إكرامهم من كل شيء أمر حتم لا يكون غيره أصلاً.

ولما كان الإكرام لا يتم إلا مع طيب المقام قال: {في جنات النعيم *} أي التي لا يتصور فيها غيره.

ولما كان التلذذ لا يكمل إلا مع الأحباب، وكانت عادة الملوك الاختصاص بالمحل الأعلى، بين أنهم كلهم ملوك فقال : {على سرر متقابلين *} أي ليس فيهم أحد وجهه إلى غير وجه الآخر على كثرة العدد. ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالشراب، وكان المقصود الطواف فيه، لا كونه من معين، قال: {يطاف} بالبناء للمفعول وكأنها يدلى إليهم من جهة العلو ليكون أشرف لها وأصون، فنبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال: {عليهم} أي وهم فوق أسرتهم كالملوك {بكأس} أي إناء فيه خمر، قالوا : وإن لم يكن في الزجاجة خمر فهي قدح، ولا تسمى كأساً إلا والخمر فيها {من معين *} أي من خمر جارية في أنهارها، ظاهرة للعيون تنبع كما تنبع الماء لا يعالجونها بعصير، ولا يحملهم على الرفق بها والتقصير فيها نوع تقصير، قال الرازي : إنما سميت به إما من ظهورها للعين أو لشدة جريها من الإمعان في السير أو لكثرتها من المعن، وهو الكثير، وسمي الماعون لكثرة الانتفاع به، ويقال : مشرب ممعون: لا يكاد ينقطع.

▲ تفسير الآيات رقم [46- 54]

{بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)}

ولما كان أول ما يختار في الشراب لونه ثم طعمه، قال واصفاً ما في الكأس من الخمر استخداماً: {بيضاء} أي مشرقة صافية هي في غاية اللطافة تتلألأ نوراً، وأعرق في وصفها بالطيب بجعلها تفسيراً للمعنى في قوله: {لذة للشاربين *} بما كانوا يتجرعون من كأسات الأحزان والأنكاد، وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف، وجمع إشارة إلى أنهم لا يعلونها إلا كذلك بما فيه من مزيد اللذة.

ولما كان قد أثبت لها الكمال، نفى عنها النقص فقال : { لا فيها غول } أي فساد من تصديع رأس أو إرخاء مفصل أو إخماء كبد أو غير ذلك مما يغتال أي يهلك، أو يكون سبباً للهلاك {ولا هم عنها} أي عادة بعد شربها {ينزفون *} أي يذهب شيء من عقولهم وإن طال شربهم وكثر لئلا ينقص نعيمهم ولا ينفذ شرابهم أو ما عندهم من الجدة لكل ما يسر به– على قراءة حمزة والكسائي بكسر الزاي من أنزف– مبنياً للفاعل مثل أقل وأعسر– إذا صار قليل المال، أو ذهب عقله، وقراءة الجماعة بالبناء للمفعول يحتمل أن تكون من نزف، وحينئذ يحتمل أن تكون من نفاذ الشراب من قولهم: نزفت الركية، اي ذهب ماؤها، وأن تكون من ذهاب العقل من قولهم : نزف الرجل بالبناء للفاعل ونزف بالبناء للمفعول بمعنى: ذهب عقله بالسكر ويحتمل أن تكون من أنزف وحينئذ يحتمل أن تكون من ذهاب العقل من أنزف الرجل– إذا ذهب عقله بالسكر، وأن تكون من عدم الشراب من قولهم: نزف الرجل الخمرة– سواء كان مبنياً للفاعل أو للمفعول– إذا أفناها.

ولما كان ذلك كله لا يكمل إلا بالجماع، والخمر أدعى شـــيء إليه، وهو لا يكمل النعيم به إلا بالاختصاص قال: {وعندهم} نساء من أهل الدنيا وغيرها {قاصـــرات الطرف} أي لا تطرف واحدة منهن إلى غير زوجها ولا يدعه تناهي حســـنها وفرط جمالها طرفها يطرف إلى غيرها {عين *} أي نجل العيون، جمع عيناء، كسرت عينه لمناسبة الياء.

ولما كان أحسن الألوان لا سيما عند العرب الأبيض الأحمر المشرب صفرة أكتسبته صفاء وإشراقاً وبهاء، قال: {كأنهن بيض} أي بيض نعام {مكنون *} أي مصـــون من دنس يلحقه، وغبار يرهقه، ولمحبة العرب لهذا اللون كانت تقول عن النســاء بيضــات الخدور لأنه لونه أبيض مشــرباً صــفرة صافية، وقد صرح امرؤ القيس بهذا في لاميته المشهورة فقال:

كبكر مقاناة البياض بصفرة *** غذاها نمير الماء غير المحلل

أي مخالطة البياض المائل إلى الحمرة بصفرة، وهو أصفى الألوان واعدلها، يشابه لون نور القمر.

ولما كان ذلك الاجتماع إنما هو للسرور، وكان السرور لا يتم إلا بالمنادمة، وكان أحلى المنادمة ما يذكر بحلول نعمة أو انحلال نقمة، تسبب عن ذلك ولا بد قوله إشارة إلى فراغ البال وصحة العقل بالإصابة في المقال: {فأقبل بعضهم} أي أهل الجنة بالكلام، وأشار إلى أن مجرد الإقبال بالقصد يلفت القلوب إلى سماعه بأداة الاستعلاء فقال: {على بعض} أي لأجل الكلام الذي هو روح ذلك المقام، وأما المواجهة فقد تقدم أنها دائمة، وبين حال هذا الإقبال فقال: {يتساءلون *} أي يتحدثون حديثاً بيناً لا خفاء بشيء منه بما

أشار إليه الإظهار بما حقه أن يهتم به ويسأل عنه من أحوالهم التي خلصوا منها بعد أن كادت ترديهم، وسماه سؤالاً لأنه مع كونه أهلاً لأن يسأل عنه- لا يخلو عن سؤال أدناه سؤال المحادث أن يصغي إلى الحديث، وعبر عنه بالماضي إعلاماً بتحققه تحقق ما وقع.

ولما تشوف السامع إلى سماع شيء منها يكون نموذجاً للباقي، أشار إلى ذلك بقوله مستأنفاً: {قال قائل منهم} أي في هذا التساؤل، وشتان ما بينه وبين ما مضى خبره من تساؤل أهل النار.

ولما كان ظنه أنه لا يخلص من شر ذلك القرين الذي يحدث عنه فنجاه الله منه على خلاف الظاهر، فكان ذلك إحدى النعم الكبرى، نبه عليه بالتأكيد فقال: {إني كان لي قرين *} أي جليس من الناس كأنه شيطان مبين {يقول} أي مكذباً بالبعث مستبعداً له غاية الاستبعاد مجدداً لقوله في كل وقت، يريد أن يختدعني بلطافة قياده إلى سوء اعتقاده: {أإنك لمن المصدقين *} أي بالبعث- يوبخني بذلك ويستقصر باعي في النظر استثارة لهمتي وإلهاباً لنخوتي وحميتي، ويكرر الإنكار بقوله: {أإذ متنا} أي فذهبت أوراحنا {وكنا} أي كوناً راسخاً {تراباً وعظاماً} أي فانمحقت أجسامنا التي هي مراكب الأرواح {أإنا لمدينون *} أي لمجزيون بعد ذلك بما عملنا بأن نبعث ونجازى، وكان تأكيده للإشارة منه إلى كل عاقل جدير بأن يكذب بما أقررت به لبعده، أو إلى أنه مكذب به ولو كان مؤكداً.

ولما كان هذا المقال سبباً لعظيم تشوف السامع إلى ما يكون بعده، وكان أهل الجنة من علو المكان والمكانة وصحة الأجسام وقوة التركيب ونفوذ

الأبصـار بحيث ينظرون ما شـاؤوا من النار وغيرها مما دونهم متى شـاؤوا، اسـتانف قوله مشـيراً إلى أن حاله هذت معلم أنه من أهل النار : {قال} أي هذا القائل لشربه هؤلاء الذين هم كما قال بعضهم في موشح:

رب شرب كالعقد قد نظموا *** في ثياب طرازها الكرم

فاغتنمت الهنا كما اغتنموا *** وظننت الكؤوس بينهمو

أنجماً في سما الهناء ترى *** كل نجم يغيب في بدر

{هل أنتم مطلعون *} أي شـافون قلبي بأن تتركوا ما أنتم فيه من تمام اللذة وتكلفوا أنفسكم النظر معي في النار لتسروني بذلك.

▲ تفسير الآيات رقم [55- 62]

{فَاطَّلَعَ فَرَآَهُ فِي سَـوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَـرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61) أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62)}

ولما كان المحدث عنه المخلصـــــين، وهم أهل الجنة كلهم أو جلهم، وكان الضـــمير يعود لما ســبقه بعينه، وكان مخاطبو هذا القائل إنما هم شـــربه، وكان من المعلوم مما مضى من التقابل والتواد والتواصل بالمنادمة والتساؤل أنهم ينتدبون ندبهم إليه ويقبلون قطعاً عليه، وكان النـافع لنا إنما هو قولـه فقط في توبيخ عدوه وتغبيط نفسـه ووليه، لم يجمع الضـمير لئلا يلبس فيوهم أنـه للجميع، وأعـاده عليـه وحده لنعتبر بمقالـه، ونتعظ بما قص علينا من حاله فقال: {فاطلع} أي بسـبب ما رأى لنفســه في ذلك من عظيم اللذة إلى

أهل النار {فرآه} أي ذلك القرين السوء {في سواء الجحيم *} أي في وسطها وغمرتها تضطرم عليه أشد اضطرام بما كان يضرم في قلبه في الدنيا من الحر كلما قال له ذلك المقال، وسمي الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب كمركز الدائرة، ثم استأنف الإخبار عن مكافأته له بما كان من تقريعه وتوبيخه على التصديق بالآخرة بقوله: {قال} أي لقرينه ذلك.

ولما كان لا يقع في فكر أنه كان يتلفت إلى قوله هذا نوع التفاف لأنه ظاهر البطلان، ولأن هذا القائل محكوم بأنه من أهل الجنة، أكد قوله إشارة إلى أنه كان يؤثر فيه قوله في كثير من الأوقات بما يزينه به الشيطان وتحسنه النفوس بالشهوات، والراحة من كلف الطاعات، وساقه في أسلوب القسم تنبيهاً على التعجب من سلامته منه فقال: {تالله} وزاد التأكيد بعم ما علقه بالاسم الأعظم بالمخففة من المثقلة فقال: {إن كدت لتردين} أي إنك قاربت أن تهلكني وتجعلني في أردأ ما يكون من الأماكن، وفي هذا التأكيد غاية الترغيب في الثبات لمن كان قريباً من التزلزل وفي المباعدة لقرناء السوء.

ولما ذكر سوء ما كان يأتي إليه، ذكر حسن أثر الله سبحانه عنده، فقال لافتاً الكلام إلى صفة الإحسان لأنه مقامه: {ولولا نعمة ربي} أي المحسن إليّ بما رباني به من تثبيتي عن أتباعك والتجاوز عني في مخالطتك {لكنت} كوناً ثابتاً {من المحضرين *} أي المكرهين على حضور هذا الموطن الضنك الذي أنت فيه، فيالله ما أعظم إحسان هذه الآية في التنفير من العشرة لقرناء السوء لأنها شديدة الخطر قبيحة الأثر، ولقد أبان نظره هذا عن أنه لم يكن أعلى لذة مما كان فيه فليس بأدنى منه، فإنه لا شيء ألذ

من رؤية العدو الماكر الذي طالما أحرق الأكباد وشــوش الأفكار، في مثل دلك من الإنكار، وعظائم الأكدار، من غمرات النار.

ولما رأى ذاك فيما هو فيه من الجحيم، ورأى نفســه فيما هي فيه من النعيم، ما ملك نفســـه أن قال كما يعرض لمن يكون في شـــدة فيأتيه الفرج فجأة فيصير كأنه في منام أو أضغاث أحلام، لا يصدق ما صار إليه سروراً: {أفما} أي أنحن يا إخواني منعمون مخلدون فيتسـبب عن ذلك أنا ما {نحن بميتين *} أي بعد حالتنا هذه، وأكده لأن مثله لأجل نفاسته لا يكاد يصدق، ثم أعرق في العموم بما هو معياره فقال: {إلا موتتنا الأولى} أي التي كانت في الدنيا.

ولما ذكر نعمة الخلاص من الموت، ذكر نعمة الإنقاذ من الأكدار فقال: {وما} {نحن} وأكد النفي فقال: {بمعذبين *}.

ولما تذكر هذا فاستفزه السرور، وازدهته الغبطة والحبور، لم يملك نفسه أن قال في أســلوب التأكيد لما له في ذلك من النشــاط لما له من خرق العادة منبهاً على عظمته لتعظيم الغبطة: {إن هذا} أي الملك الذي نحن فيه {لهو} أي وحده {الفوز العظيم *} أي الذي لا شــيء يعدله. ولما دل هذا السياق على عظيم ما نالوه، زاد في تعظيمه بقوله: {لمثل هذا} أي الجزاء {فليعمل العاملون *} أي لينالوه فإنهم يغتنون غنى لا فقر بعده بخلاف ما يتنافسون فيه ويتدالجون عليه من أمور الدنيا، فإنه مع ســـرعة زواله منغض بكدره وملاله.

ولما فات الوصـــف هذا التشـــويق إلى هذا النعيم، رمى في نعته رمية أخرى سبقت العقول وتجاوزت حد الإدراك وعلت عن تخيل الوهم في استفهام منفر من ضـــده بمقدار الترغيب فيه لمن كان له لب فقال: {أذلك} الجزاء البعيد المنال البديع المثال {خير نزلاً} فأشار بذلك إلى أنه إنما هو شيء يسير كما يقدم للضـــــيف عند نزوله على ما لاح في جنب ما لهم وراء ذلك مما لا تسعه العقول ولا تضبطه الفهوم: {أم شجرة الزقوم *} أي التي تعرفها بأنها في غاية النتن والمرارة، من قولهم: تزقم الطعام- إذا تناوله على كره ومشقة شـــديدة، وعادل بين ما لا معادلة بينهما بوجه تنبيهاً على ذلك، ولأنهم كانوا يرون ما ســـبب ذلك من الأعمال خيراً من أعمال المؤمنين التي ســـببت لهم النعيم، فكأنهم كانوا يقولون: إن هذا العذاب خير من النعيم، فســـــيق ذلك كذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم.

▲ تفسير الآيات رقم [63 -70]

{إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)}

ولما كان قد أخبر أن نباتها في النار، فكان ذلك ســـــبباً لزيادة تكذيبهم لأن عدم إيمانهم كان ســـــبباً لضـــــيق عقولهم، قال مؤكداً رداً على من يظن أن سبحانه لا يفتن عباده لأنه غني عن ذلك: {إنا جعلناها} أي الشجرة بما لنا من العظمة {فتنة للظالمين *} أي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها

كمن هو في الظلام بكونها عذاباً لهم في الأخرى وسبباً لزيادة ضلالهم في الدنيا، ولو وضعوها مواضعها لعلموا أن من جعل في الشجر الأخضر ناراً لا تحرقه يستخرجونها هم متى شاؤوا فيحرقون بها ما شاؤوا من حطب وغيره قادر على أن ينبت في النار شجراً أخضر لا تحرقه النار، ثم نبه على أن محل الفتنة جعلها فيما ينكرونه، فقال تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم معللاً لجعلها فتنة تخالطهم فتحيلهم في الدنيا بحرها وفي الأُخرى بأثرها: {إنها} وحقق أمر نباتها بقوله: {شجرة} وزاد الأمر بياناً بقوله: {تخرج} وأكده بالظرف فقال: {في أصل} أي ثابت وقعر ومعظم وقرار {الجحيم} أي النار الشديدة الاضطرام وفروعها ترتفع إلى دركاتها، ثم زاد ذلك وضوحاً وتصويراً بقوله: {طلعها} أي الذي هو مثل طلع النخل في نموه ثم تشققه عن ثمرة {كأنه رءوس الشياطين *} فيما هو مثل عند المخاطبين فيه، وهو القباحة التي بلغت النهاية، وهذا المثل واقع في أتم مواقعه سواء كان الشيطان عندهم أسماً للحية أو لغيرها، لأن قبح الشياطين وما يتصل بهم في أنهم شر مخص لا يخلطه خير مقرر في النفوس، ولهذا كان كل من استقبح منظر إنسان أو فعله يقول: كأنه شيطان، كما انطبع في النفوس حسن الملائكة وجلالتهم فشبهوا لهم الصور الحسان، ولذلك سمت العرب ثمر شجر يقال له الأستن بهذا الاسم، وهو شجر خشن مر منتن منكر الصورة.
ولما أثبت أمرها بما هو في غاية الفتنة لها واللطف للمؤمنين، سبب عن الفتنة بها قوله: راداً لإنكارهم أن يأكلوا مما لا يشتهونه ومكذباً لما كانوا يدعون من المدافعة: {فإنهم} أي بسبب كفرانهم بها وبغيرها مما أمرهم الله

{لآكلون منها} أي من هذه الشجرة من شوكها وطلعها وما يريد الله بما يؤلم منها . ولما كانوا قد زادوا في باب التهكم في أمرها، زاد التأكيد في مقابلة ذلك بقوله: {فمالئون منها} ومن غيرها في ذلك الوقت الذي يريد الله أكلهم منها {البطون *} قهراً على ذلك وإجباراً. ولما أحرق أكبادهم من شديد الجوع زيادة في العذاب، ولما جرت العادة بأن الآكل المتنعم يتفكه بعد أكله بما يبرد غلة كبده، قال مشـيراً إلى تناهي شـناعة متفكههم، وطويل تلهبهم من عطشـهم، بأداة التراخي وآلة التأكيد لما لهم في ذلك من عظيم الإنكار: {ثم إن لهم عليها} أي على أكلهم منها {لشـوباً} أي خلطاً عظيم الإحراق {من حميم *} أي ماء حار كأنه مجمع من مياه من عصـارات شـتى من قيح وصديد ونحوهما- نسأل الله العافية.

ولما كان ما ذكر للفريقين إنما هو النزل الذي مدلوله ما يكون في أول القدوم على حين غفلة، وكانوا يريدون الحميم كما يورد الإبل الماء، وكان قوله تعالى {يطوفون بينها وبين حميم آن} [الرحمن: 44] يدل على أن ذلك خارجها أو خارج غمرتها، كما تكون الأحواض في الحيشـان خارج الأماكن المعدة للإبل، قال مبيناً أن لهم ما هو أشد شناعة من ذلك ملوحاً إليه بأداة التراخي: {ثم إن مرجعهم} أي بعد خروجهم من دار ضيافتهم الزقومية {لإلى الجحيم *} أي ذات الاضـطرام الشـديد، والزفير والبكاء والاغتمام الطويل المديد، كما أن حزب الله يتقلبون من جنات النعيم إلى جنات المأوى مثلاً إلى جنات عدن إلى الفردوس التي لا يبغون عنها حولاً كما ينقل أهل السعة

والأكابر من أهل الدنيا ضـــيوفهم في البســـاتين المتواصـــلة والمناظر، وينزهونهم في القصور العالية والدساكر.

ولما أخبر عن عذابهم هذا، وكان سببه الجمود مع العادة الجارية على غير الحق، والتقيد بما ألفته النفس ومال إليه الطباع، مما أصّله من يعتقدون أنه أكبر منهم وأتم عقلاً، علل ذلك تحذيراً من مثله لأنه كان سـبب هلاك أكثر الخلق، وأكده لأنهم ينكرون ضـلال من أصّـل لهم، فتلك العوائد من آبائهم وغيرهم فقال: {إنهم ألفوا} أي وجدوا وجدانا ألفوه {آباءهم ضـالين *} أي عريقين في الضـلال، فما هم فيه لا يخفى على أحد أنه ضـلال يتسبب عنه النفرة عن صاحبه {فهم} أي البعداء البغضاء {على آثارهم} أي التي لا تكاد تبين لأحد لخفاء مذاهبها لوهيها وشـدة ضـعفها وانطماس معالمها، لا على غيرها {يهرعون *} أي كأنهم يلجئهم ملجئ إلى الإسـراع، فهم في غاية المبادرة إلى ذلك من غير توقف على دليل ولا استضاءة بحجة بحيث يلحق صـاحب هذا الإسـراع من شـدة تكالبه عليه شـيء هو كالرعدة، وذلك ضـد توقفهم وجمودهم فيما أتاهم به رسولنا صلى الله عليه وسلم من شجرة الزقوم وغيرها مما هو في غاية الوضـوح والجلاء، فأمعنوا في التكذيب به والاسـتهزاء، وأصـروا بعد قيام الدلائل، فكانوا كالجبال ثباتاً على ضـلالهم، والحجارة الصلاب الثقال رسوخاً في لازب أوحالهم.

▲ تفسير الآيات رقم [71- 75]

{وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75)}

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد المحبة لهداهم والحزن على ضلالهم، والأسف على غيهم ومحالهم، وكان الضلال مع العقل أولاً، ثم مع وجود الرسل الذين هم من الصدق والمعجزات والأمور الملجئة إلى الهدى ثانياً كالمحال، سلاه سبحانه بقوله على سبيل التأكيد لزيادة التحقيق: {ولقد ضل قبلهم} أي قبل من يدعوهم في جميع الزمان الذي تقدمهم {أكثر الأولين *} بحيث إنه لم يمض قرن بعد آدم عليه السلام إلا وكله أو جله ضلال.

ولما كان ربما ظن أنه لعدم الرسل، نفى ذلك بقوله مؤكداً لنحو ذلك: {ولقد أرسلنا} أي على ما لنا من العظمة التي توجب الإتيان بما لا ريب فيه من البيان {فيهم منذرين *} أي فأنذروهم بأس الله وبينوا لهم أحسن البيان، ومع ذلك فغلب عليهم الضلال، وعناد أهل الحق بالمحال، حتى أهلكهم الله بما له من شديد المجال، وهو معنى قوله: {فانظر} أي فتسبب عن الإرسال أنا فعلنا في إهلاكهم من العجائب ما يستحق التعجيب به والتحذير من مثله بأن يقال لمن تخلف عنهم: انظر {كيف} ولما كان ذلك عادة مستمرة لم تختلف أصلاً قال: {كان عاقبة} أي آخر امر {المنذرين} أي في إنا أهلكناهم لتكذيبهم، فاصبر على الشدائد كما صبروا، واستمر على الدعاء بالبشارة والنذارة حتى يأتيك أمر الله.

ولما أفهم الحكم على الأكثر بالضــلال أن الأقل على غير حالهم، نبه على حال الطائعين بقوله مستثنياً من ضـمير المنذرين: {إلا عباد الله} أي الذين استخلصهم سبحانه بما له من صفات الكمال، فاستحقوا الإضافة إلى اسمه الأعظم {المخلصــين *} أي الذين أخلصــهم له فأخلصــوا هم أعمالهم فلم يجعلوا فيها شوباً لغيره.

ولما كان مقصــود الســورة التنزيه الذي هو الإبعاد عن النقائص، ولذلك كان أنسب الأشياء الإقسام أولها بالملائكة هم أنزه الخلق، وكان أعلى الخلق من جرد نفسه عن الحظوظ بما يؤتيه الله من المجاهدات والمنازلات والمعالجات حتى يلحق بهم فيجوز مع فضلهم معالي الجهاد، فكان أحق الأنبياء بالذكر من كان أكثر تجريداً لنفسه من الشواغل سيراً إلى مولاه وتعريجاً عن كل ما ســواه، وكان الأب الثاني من أحقهم بذلك لأنه تجرد في الجهاد بالدعاء إلى الله ألف عام ثم تجرد عن كل شـيء على ظهر الماء بين الأرض والسـماء، فقال تعالى مؤكداً لما تقدم من أنه دعا إلى التأكيد من أن مكثه في قومه المدة الطويلة مبعد لأن يكونوا وافقوه ومالوا معه وتابعوه، ولأن فعل العرب في التكذيب مع ترادف المعجزات وتواتر العظات عمل من هو مكذب بوقوع النصـرة للمرسلين، والعذاب للمكذبين، عطفاً على تقديره: فقاسـى الرسل من الشدائد ما لا تسعه الأوراق، وجاهدوهم بأنفسهم والتضـرع إلى الله تعالى في أمرهم: {ولقد نادانا} لما لنا من العظمة {نوح} بقوله

{رب إني مغلوب فانتصـــر} [القمر : 10] ونحوه مما أخبر الله عنه به بعد أمور عظيمة لقيها منهم من الكروب، والشـــدائد والخطوب، لنكشـف عنه ما أعياه من أمرهم.

ولما أغنت هذه الجملة عن شـــرح القصـــة وتطويلها، وكان قد تســـبب عن دعائه إجابته، قال بالتأكيد بالاسمية والإشارة إلى القسم والأداة الجامعة لكل مدح وصـــيغة العظمة إلى أن هول عذابهم وعظم مصـــابهم بلغ إلى أنه مع شـــهرته لا يكاد يصـــدق، فهو يحتاج إلى اجتهاد كبير وشـــدة اعتناء، فكانت الإجابة إجابة من يفعل ذلك وإن كانت الإفعال بالنسبة إليه سبحانه على حد سواء، لا تحتاج إلى غير مطلق الإرادة: {فلنعم المجيبون *} أي كنا بما لنا من العظمة له ولغيره ممن كان نعم المجيب لنا، هذه صفتنا لا تغير لها.

▲ تفسير الآيات رقم [76- 82]

{وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِـــنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ (82)}

ولما كان معنى هذا : فأجبناه إجابة هي النهاية في اســـتحقاق على الممادح من إيصـــاله إلى مراده من حمله وحمل من آمن به والانتقام ممن كذبه كما هي عادتنا دائماً، عطف عليه قوله : {ونجيناه} أي بما لنا من العظمة {وأهله} أي الذين وافقوه في الدين {من الكرب العظيم *} وهو الأذى من الغرق {وجعلنا ذريته هم} أي خاصـــة {الباقين *} لأن جميع أهل الأرض

غرقوا فلم يبق منهم أحد أصلاً، وأهل السفينة لم يعقب منهم أحد غير أولاده، فأثبناه على نزاهته إن كان هو الأب الثاني، فالعرب والعجم أولاد سـام، والسودان أولاد حام، والترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج أولاد يافث، فكل من تبع سنته في الخير كان له مثل أجره.

ولما ذكر لأنه بارك في نسـله، أعلم أنه أدام ذكره بالخير في أهله فقال: {وتركنا عليه} أي ثناء حسـناً، لكنه حذف المفعول وجعله لازماً، فصـار المعنى: أوقعنا عليه الترك بشـيء هو من عظمته وحسـن ذكره بحيث يعز وصـفه {في الآخرين *} أي كل من تأخر عن زمانه إلى يوم الدين. ولما كان قد كتب الله في القدم سـلامته من كل سـوء على كثرة الأعداء وطول الإقامة فيهم وشـدة الخلاف قال تعالى مسـتأنفاً مادحاً: {سـلام} أي عظيم {على نوح} من كل حي من الجن والأنس والملائكة لسـلام الله عليه. ولما كان لسـان جميع أهل الأرض في زمانه عليه السـلام واحداً، فكانوا كلهم قومه، ولم يكن في زمانه نبي، فكانت نبوته قطب دائرة ذلك الوقت، فكان رسالته عامة لأهله، وكان غير الناس من الخلق لهم تبعاً، خصه في السلام بأن قال: {في العالمين} أي مذكور فيهم كلهم لفظاً ومعنى يسلم عليه دائماً إلى أن تقوم الساعة، وخصوصية نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه أرسل إلى جميع الخلق مع اختلاف الألسـنة ومع اسـتمرار الرسـالة أبد الآباد، وكون شـريعته ناسـخة غير منسـوخة، وكون جميع الخلق في القيامة تحت لوائه، فهناك يظهر تمام ما أوتيه من عموم البعثة إلى ما ظهر منه في الدنيا.

ولما كان التقدير: فعلنا به ذلك لإحسانه، وكان الضالون ينكرون أن تنجو الدعاء إلى الله وأتباعهم منهم، أخبر في سياق التأكيد أنه يفعل بكل محسن ما فعل به فقال {إنا} أي على عظمتنا {كذلك} أي مثل ذلك الجزاء بالذكر الحسن والنجاة من كل سوء {نجزي المحسنين *} أي الذين يتجردون من الظلمات النفسانية إلى الأنوار الملكية بحيث لا يغفلون عن المعبود، ولا ينفكون لحظة عن الشهود.

ولما أفهمت هذه الجملة- ولا بد- إحسانه إلى المحسن، علل ما أفهمته بقوله: مؤكداً إظهاراً للإقبال عليه بأن ذكره مما يرغب فيه، وتكذيباً لمن كذبه: {إنه من عبادنا} أي الذين هم أهل لأن نضيفهم إلى مقام عظمتنا {المؤمنين *} أي الراسخين في هذا الوصف، المتمكنين فيه، فعلم أن الإيمان هو المراد الأقصى من الإنسان لأنه علل الإنجاء بالإحسان والإحسان بالبيان، ولما أفهم تخصيص ذريته بالبقاء إهلاك غيرهم، وقدم ما هو أهل له من مدحه اهتماماً به وترغيباً في مثله، أخبر عن أعدائه بأنه أوقع بهم لأنهم لم يتحلوا بما كان سبب سعادته من الإيمان بقوله: مشيراً إلى العظمة التي أوجدها سبحانه في إغراقهم بأداة التراخي: {ثم أغرقنا} أي بما لنا من العظمة التي لا يقوم لها شيء {الآخرين *} أي الذي غايروه في الأقوال والأفعال فاستحقوا أضداد أفعالنا معه وهو أهل الأرض كلهم غير أهل السفينة وكلهم قومه كما هو ظاهر الآيات إذا تؤمل تعبيرها عن الدعوة والإغراق ودعائه عليه السلام عليهم، وظاهر ما رواه الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يقولون:

»ائتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض»، وإنما كانوا قوماً لا أكثر، لأنهم كانوا على لسان واحد قبل بلبلة الألسن باتفاق أهل التأريخ، وذلك كما أن العرب يطلق عليهم كلهم على انتشـــارهم واتســـاع بلادهم أنهم قوم، لاجتماعهم في اللســان مع أنهم قبائل لا يحصـيهم العد، ولا يجمعهم نسـب واحد إلا في إسـماعيل عليه السـلام، وقيل فيما فوقه، فإن النسـابين أجمعوا على أن عدنان من ولد إسـماعيل عليه السـلام، قالوا: هو من ولد عدنان، واختلفوا في قحطان أبي اليمن وكذا ثقيف، فقيل: هما من ولد إســماعيل عليه السلام، وقيل لا، ثم من قال: إن ثقيفاً من ولد إسماعيل عليه السلام، قالوا: هو من ولد عدنان، وقال بعضــهم: لا، ثم إن من ولد عدنان ربيعة ومضــر، ومن دون مضــر كنانة وهذيل والقارة وخزاعة وأسـد وتميم ومزينة والرباب وضـــبة وقيس، ودون ذلك باهله وأشـــجع وفزارة وكنانة وقريش وخلائق، ومن دون ربيعة بكر بن وائل وغيرهم، ومن دون ذلك شـيبان وعبد القيس والنمر وخلائق، ودون قحطان أبي اليمن لخم وجذام وعائلة وغســان وكندة وهمدان والأزد، ومنهم الأنصار وخلائق غير ذلك، فهؤلاء كلهم– على هذا التشـــعب والانتشـــار والاختلاف في الأديان، بل وفي بعض اللغة– يسمون أمة واحدة وقوماً لجمع اللسـان لهم في أصـل العربية، وبنو إسـحاق ليسـوا منهم بلا خلاف، مع أنهم أولاد عمهم لمخالفتهم لهم في اللســان على أنهم أقرب من قحطان وثقيف في النســب عند من قال إنهم ليســوا من ولد إسماعيل عليه السلام، وكذا بنو إسحاق عليه السلام افترقوا بافتراق اللسان فبنوا إســماعيل قوم وبنو العيص– وهم الروم– قوم وكذا ســائر الأمم إنما

يفرق بينهم اللسان وعموم دعوته لبني آدم عليه السلام على هذا الوجه لا يقدح في خصوصية نبينا صلى الله عليه وسلم بعموم الدعوة والأرسال إلى غير قومه، أما العموم فإنه أرسل إلى كل من ينوس من الإنس والملائكة والجن، وأما دعاء الأقوام فالمراد أنه أرسل إلى الموافق في اللسان والمخالف فيه، وأما غيره فما أرسل إلى من خالفه في اللسان ولا إلى غير جنسه وإن كان يندب له أنه يأمر بالمخالفين في اللسان وينهاهم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير وجوب، ولو سلمنا في نوح عليه السلام أنه لم يبعث إلى جميع أهل الأرض انتقض بآدم عليه السلام فإنه نبي مرسل، كما روى ذلك الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي ومحمد بن يحيى بن أبي عمر وأبو بكر بن أبي شيبة والحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى الموصلي وإسحاق بن راهويه في مسانيدهم والطبراني في معجمه الأوسط عن أبي أمامة الباهلي وأبي ذر رضي الله عنهما وفي بعض طرق أبي ذر التصريح بالإرسال ولا يشك أحد أنه كان رسولاً إلى جميع من أدركه من أولاده، وهم جميع أهل الأرض، وكذلك نوح عليه السلام، لا يشك أحد أنه كان بعد الغرق رسولاً إلى جميع أهل السفينة كما كان قبل ذلك: وهم جميع أهل الأرض، فما قدمت من أن الخصوصية بالإرسال إلى ذوي الألسن المختلفة من جميع بني آدم، وإلى المخالف في الجنس من كل من ينوس هو المزيل للإشكال– والله الموفق.

▲ تفسير الآيات رقم [83- 87]

{وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87)}

ولما كان لإبراهيم عليه السلام من التجرد عن النعوت البشرية والعلائق النفسانية إلى الأحوال الملكية ما لم يكن لمن بينهما من النبيين من المصارحة بالمعارضة لقومه، والإبلاغ فيها بكسر الأوثان، وتوهية مذهب الكفران، والانفراد عما سوى الله في غمرات النيران، حتى عن الدعاء بقلب أو لسان فناء عن جميع الأكوان، ثم الهجرة عن الأوطان، ثم بالخروج عن الأحباب والأخوان، بوضع ابنه بكره وسريته في ذلك المكان، الذي ليس به إنس ولا جان، ثم بمعالجة ذبحه بأتم قوة وأقوى جنان، ثم ببناء البيت ذوي الأركان، قبلة للمتجردين من أهل الإيمان في كل أوان، عما سوى الملك الديان، يصفون عند كل صلاة مثل صفوف الملائكة الكرام، وكان موافقاً لنوح عليه السلام مع ما تقدم في البركة في نسله بحيث إنهم قريب نصف أهل الأرض الآن، وكان أشهر أمره في النار التي هي ضد أشهر أمر نوح عليه السلام في الماء، تلاه به فقال مؤكداً إظهاراً أيضاً لما له من الكرامة والمنزلة العالية في الإمامة، المقتضية للنشاط في الثناء عليه، المنبهة على ما ينبغي من إتمام العزم في متابعته، وتكذيباً لمن ادعى أنه ابتدع وخالف من كان قبله: {وإن من شيعته} أي الذين خالط سره سرهم ووافق أمره أمرهم، في التصلب في الدين والمصابرة للمفسدين {لإبراهيم *} ثم علق بمعنى

المشـــايعة بياناً لما كانت به المتابعة قوله على تقدير ســؤال من قال: متى شايعه؟ {إذا} أي حين {جاء ربه} أي المحسن في تربيته {بقلب سليم *} أي بالغ السـلامة عن حب غيره، والمجيء مجاز عن الإخلاص الذي لا شـائبة فيه كما أن الآتي إليك لا يكون شـيء من بدنه عند غيرك، ثم أبدل من ذلك ما هو دليل عليه فقال: {إذ قال لأبيه} أي الذي هو أعظم الناس عنده وأجلهم في غينه وأعزهم لديه {وقومه} أي الذين لهم من القوة والجدود ما تهابهم به الأســـود: {ماذا} أي ما الذي {تعبدون *} تحقيراً لأمرهم وأمر معبوداتهم منبهاً على أنه لا علة لهم في الحقيقة تحمل على عبادتها غير مكترث بكثرتهم ولا هائب لقوتهم ولامراع لميل الطبع البشري إلى مودتهم.

ولما لوح لهم بالإنكار، صـرح فقال مقدماً للمفعول تخصـيصـاً: {أئفكاً} أي صرفاً للحق عن وجهه إلى قفاه. ولما جعل معبوداتهم نفس الإفك، أبدل منه قوله: {آلهة} ثم حقر شـأنهم بقوله: {دون الله} أي الذي لا كفوء له {تريدون *} ولما كان قد غلب عليه الشـهود عند تحقيره لهم، سـبب عن ذلك تهديداً على فعلهم عظيماً، فقال مشيراً إلى أنه يكفي العاقل في النهي ظن العطب: {فما ظنكم} ولما كان كفران الإحسان شديداً، ذكرهم بإحسانه حافظاً لسياق التهديد بالإشـــارة إلى أنه يكفي في ذلك الخوف من قطع الإحســـان فقال: {برب العالمين *} اي الذي توحد بخلق جميع الجواهر والأعراض وتربيتهم فهو مســتحق لتوحيدهم إياه في عبادتهم، أتظنون أنه لا يعذبكم وقد صــرفتم ما أنعم به عليكم إلى عبادة غيره، إشـــارة إلى إنكار تجويز مثل هذا، وأن

المقطوع به أن محسناً لا يرضى بدوام إدرار إحسانه إلى من ينسبه إلى غيره.

▲ تفسير الآيات رقم [88- 96]

{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96)}

ولما أفهم السياق شدة عداوته صلى الله عليه وسلم، وكان الله تعالى قد أجرى عادته بأن جعل في النجوم أدلة على بعض المسائل الظنية لا سيما البحرانات في أنواع الأسقام، وكان أهل تلك البلاد وهم الكسدانيون كما تقدم في الأنعام وكما قاله ابن عباس رضي الله عنهما وكما دلت عليه كتب الفتوحات- من أشد الناس نظراً في النجوم والاستدلال بها على أحوال هذا العالم في بعض ما كان وبعض ما يكون، وكان صلى الله عليه وسلم يريد أن يتخلف عن الذهاب معهم إلى المحل الذي يجتمعون فيه للعيد ليكسر الأصنام ويريد إخفاء وقت الكسر عليهم ليتمكن من ذلك، قال تعالى حاكياً عنه مشيراً إلى ذلك بالتسبب عما مضى: {فنظر نظرة} أي واحدة {في النجوم * } حين طلبوا منه أن يخرج معهم إلى عيدهم لئلا ينكروا تخلفه عنهم موهماً لهم أنه استدل بتلك النظرة على مرض باطني يحصل له، لأنهم ربما أنكروا كونه مريضاً إذا أخبرهم بغير النظر في النجوم لأن الصحة ظاهرة عليه {فقال} أي عقب هذه النظرة موهماً أنها سببه.

ولما كان بدنه صــحيحاً فكان بصـــدد أن يتوقف في خبره، أكد فقال: {إني سـقيم *} فأوهم أن مراده أنه مريض الجسـد وأراد أنه مريض القلب يسـبب آلهتهم، مقســـم الفكر في أمرهم لأنه يريد أمراً عظيماً وهو كســـرها، ومادة «سـقم» بتقاليبها الخمسـة: سـقم سـمق قسـم قمس مقس، تدور على القسـم، فالسقام كسحاب وجبل وقفل: المرض، أي لأنه يقسم القوة والفكر، وقال ابن القطاع: سقم: طاولة المرض. وقسمه جزأه، والدهر القوم: فرقهم، والقسم– بالكسـر: النصـيب والقسـم أي بالفتح: العطاء، ولا يجمع، والرأي والشـك والعيب والماء والقدر والخلق والعادة، ويكسـر فيهما، والتفريق ظاهر في ذلك كله، أما العطاء فيفرق المال ويقســمه، والرأي يقســم الفكر والشــك كذلك والعيب يقسـم العرض والماء في غاية ما يكون من سـهولة القسـم، والقدر يفصـل صـاحبه من غيره، وكذا الخلق والعادة، والمقسـم كمعظم: المهموم– لتوزع فكره، والجميل– لأنه يقسـم القول في وصـفه، والقسـم محركة: اليمين بالله، وقد أقسـم، أي أزال تقسـيم الفكر، والقسـامة: الحسـن– لأنه يوزع فكر الناظر وجونة العطار– كذلك لطيب ريحها والقسام– كسحاب: شدة الحر– لأنها تزعج الفكر فتقسـمه، أو هو أول وقت الهاجرة أو وقت ذرور الشـمس، وهي حينئذ أحســن ما تكون مرآة– فينقســم الفكر فيها لحســنها إذ ذاك وما يطرأ عليها بعده. والقمس: الغوص– لأن الغائص قســم الماء بغوصـــه، والقمس أيضــاً اضـطراب الولد في البطن لأنه يقسـم الفكر، ويكاد أن يقسـم البطن باضـــطرابه، والقاموس: معظم البحر– لأن البحر قســـم الأرض، ومعظمه أحق بهذا الاسـم، والقوامس: الدواهي– لتقسـيمها الفكر، وانقمس

النجم: غرب، أي أخذ قســمه من الغروب كما أخذه من الشــروق، أو أزال التقسيم بالسير، ومقسه في الماء: غطه– فانقسم الماء بغمسه فيه، والقربة: ملأها، فصير فيها من الماء ما يسهل قسمه، وأخذه الماء الذي وضعه فيها تقسيم للماء المأخوذ منه، ومقس الشيء: كسره، والماء: جرى– فانقسم وقسم الأرض، وهو يمقس الشـعر كيف شـاء، أي بقوله فيقسـمه من باقي الكلام، والتقميس في الماء: الإكثار من صـبه، فإن ذلك تقسـيم له، وسـمق سـموقاً: علا وطال فصار بطوله يقبل من القسمة ما لا يقبله ما هو دونه.

ولما فهموا عنه ظاهر قوله، وظنوا فيه ما يظهر من حاله، ولكنهم لم يسعهم لعظمته فيهم إلا التسـليم، تركوه فقال تعالى مسـبباً عن قوله مشـيراً إلى اسـتبعادهم مرضـه بصـيغة التفعل: {فتولوا} أي عالجوا أنفسـهم وكلفوها أن انصـرفوا {عنه} إلى محل اجتماعهم وإقامة عيدهم وأكد المعنى ونص عليه بقوله: {مدبرين *} أي إلى معبدهم فخلا له الوقت من رقيب {فراغ} أي ذهب في خفية برشـاقة وخفة، ونشـاط وهمة، قال البيضـاوي: وأصـله الميل بحيلة {إلى آلهتهم} أي أصـنامهم التي زعموها آلهة، وقد وضـعوا عندها طعاماً، فخاطبها مخاطبة من يعقل لجعلهم إياها بذلك في عداد من يعقل {فقال} منكراً عليها متهكماً بها ظاهراً وموبخاً لقومه حقيقة: {ألا تأكلون *} ثم زاد في إظهار الحق والاسـتهزاء بانحطاطها عن رتبة عابديها فقال: {ما} أي أيّ شيء حصل {لكم} في أنكم {لا تنطقون *}.

ولما أخبر تعالى أنه أظهر ما يعرفه باطناً من الحجة فقال: {فراغ} أي سبب عن إقامته الحجة أنه أقبل مسـتعلياً {عليهم} بغاية النشـاط والخفة والرشـاقة

يضـربهم {ضـربا باليمين *} أي بغاية القوة، وجعل السياق للمصـدر إشـارة إلى قوة الهمة بحيث صـار كله ضـرباً. ولما تسبب عن ذلك أنهم لما علموا بكسرها ظنوا فيه لما كانوا يسمعونه منه من ذمها وحلفه بأنه ليكيدنها فأتوه، أخبر عن ذلك بقوله مسـببًا: {فأقبلوا} ودل على أنه من مكان بعيد بقوله: {إليه يزفون *} أي يسـرعون، وقراءة حمزة بالبناء للمفعول أدل على شـدة الإسـراع لدلالتها على أنهم جاؤوا على حالة كان حاملاً يحملهم فيها على الإسراع وقاهراً يقهرهم عليه من شدة ما في نفوسهم من الوجد.

ولما كان من المعلوم أنهم كلموه في ذلك فطال كلامهم، وكان تشوف النفس إلى جوابه أكثر، اسـتأنف الخبر عنه في قوله: {قال} غير هائب لهم ولا مكترث بهم لرؤيته لهم فانين منكراً عليهم: {أتعبدون} وندبهم بالمضـارع إلى التوبة والرجوع إلى الله، وعبر بأداة ما لا يعقل كما هو الحق فقال: {ما تنحتون *} أي إن كانت العبادة تحق لأحد غير الله فهم أحق أن يعبدوكم لأنكم صنعتموهم ولم يصنعوكم.

ولما كان المتفرد بالنعمة وهو المسـتحق للعبادة، وكان الإيجاد من أعظم النعم، وكان قد بين أنهم إنما عبدوها لأجل عملهم الذي عملوه فيها فصـيرها إلى ما صـارت إليه من الشكل، قال تعالى مبيناً أنه هو وحده خالقهم وخالق أعمالهم التي ما عبدوا في الحقيقة إلا هي، وأنه لا مدخل لمنحوتاتهم في الخلق فلا مدخل لها في العبادة: {والله} أي والحال أن الملك الأعظم الذي لا كفوء له {خلقكم} أي أوجدكم على هذه الأشـكال {وما تعملون *} أي وخلق عملكم ومعمولكم، فهو المتفرد بجميع الخلق من الذوات والمعاني،

ومعلوم أنه لا يعبد إلا من كان كذلك لأنه لا يجوز لعاقل أن يشـــكر على النعمة إلا ربها.

▲ تفسير الآيات رقم [97- 101]

{قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)}

ولما كان الســامع يعلم أنهم لا بد وأن لا يجيبوه بشــيء، فتشـوف إلى ذلك، أجيب بقوله: {قالوا ابنوا له} أي لأجله {بنياناً} أي من الأحطاب حتى تصير كالجبل العظيم، فاحرقوها حتى يشـتد لهبها جداً فيصـير جحيماً {فألقوه في} ذلك {الجحيم *} أي معظم النار، وهي على أشد ما يكون إيقاداً.

ولما كان هذا مســبباً عن إرادتهم لإهانته قال: {فأرادوا به} أي إبراهيم عليه الســلام بسـبب هذا الذي عملوه {كيداً} أي تدبيراً يبطل أمره ليعلوا أمرهم ولا يبطل بما أظهر عن عجزهم دينهم {فجعلناهم} أي بعظمتنا بســـبب عملهم {الأســـفلين *} المقهورين بما أبطلنا من نارهم وجعلناها عليه برداً وســلاماً بضد عادتها في العمل، فنفذ عملنا وهو خارق للعادة وبطل عملهم الذي هو على مقتضـــى العادة، فظهر عجزهم في فعلهم كما ظهر عجزهم في قولهم، بما أظهرناه من الحجة على لســـان خليلنا عليه الســـلام، وظهرت قدرتنا واختيارنا، وإنما فســـرت الكيد بما ذكرت لأنه المكر والخبث والاحتيال والخديعة والتدبير بحق أو باطل والحرب والخوف، فكل هذه المعاني- كما ترى- تدور على التدبير وإعمال الفكر وإدارة الرأي.

ولما كان التقدير : فأجمع النزوح عن بلادهم لأنهم عدلوا عن الحجة إلى العناد، عطف عليه قوله: {وقال} أي إبراهيم عليه السلام لمن يتوسم فيه أن كلامه يحييه من موت الجهل مؤكداً لأن فراق الإنسان لوطنه لا يكاد يصدق به: {إني ذاهب} أي مهاجر من غير تردد، قالوا: وهو أول من هاجر من الخلق {إلى ربي} أي إلى الموضع الذي أمرني المحسن إليّ بالهجرة إليه، فلا يحجر عليّ أحد في عبادته فيه.

ولما كان حال سامعه جديراً بأن يقول: من لك بالمعرفة بما يحصل قصدك هذا من التعريف بالموضوع وبما تفعل فيه مما يكون به الصلاح، وما تفعل في التوصل إليه؟ قال: {سيهدين *} أي إلى جميع ذلك بوعد لا خلف فيه إلى كل ما فيه تربية لي في أمر الهجرة لأنه أمرني بها، وهو لا يأمر بشيء إلا نصب عليه دليلاً يهدي إليه، ويسهل لقاصدة المجتهد في أمره سبيله، وقد اختلفت العبارات عن سير الأصفياء إلى الحضرات القدسية، فهذه العبارة عن أمر الخليل عليه السلام، وعبر عن أمر الكليم عليه السلام بقوله {ولما جاء موسى لميقاتنا} [الأعراف: 143] وعن أمر الحبيب عليه السلام بقوله {سبحان الذي أسرى بعبده} [الأسراء: 1] قال الأستاذ أبو القاسم القشيري وفصل بين هذه المقامات: إبراهيم عيله السلام كان بعين الفرق– يعني أنه بعدما كان فيه من الجمع حين كسر الأصنام من الفناء عما سوى الله رجع إلى حال الفرق لأنه لا بد من ذلك– وموسى عيله السلام بعين الجمع لأنه أخبر عن فعله من غير أن ينسب إليه قولاً، ثم أخبر أنه قال {رب أرني} فلم ير غيره سبحانه فطلب أن يريه وهذا هو الفناء، ونبينا صلى

الله عليه وسلم بعين جمع الجمع- لأن لم ينسب إليه قول ولا فعل، بل هو المراد إلى أن قال {لنريه من آياتنا} فهذا هو الفناء حتى عن الفناء، ثم قال: {أنه هو السميع البصير} فأثبت له مع ذلك الكمال.

ولما لم يجد له معيناً على الهجرة غير لوط ابن أخيه عليهما السلام، قال منادياً مناداة الخواص بإسقاط الأداة: {رب} أي أيها المحسن إلي {هب لي من} أي ولداً من {الصالحين *} وأسقط الموصوف لأن لفظ الهبة غلب في الولد، فتسبب عن دعوته أنا استجبناها له {فبشرناه بغلام} أي بذكر في غاية القوة التي ينشأ عنها الغلمة.

ولما كان هذا الوصف ربما أفهم الطيش، وصفه بما أبقى صفاءه ونفى كدره فقال: {حليم *} أي لا يعجل بالعقوبة مع القدرة، لأنه في غاية الرزانة والثبات، فيكون ذلك إشارة إلى حصول بلاء ما يتبين به أنه سر أبيه أن إبراهيم لحليم، والحلم لا يكون إلا بعد العلم، ورسوخ العلم سبب لوجود الحلم، وهو اتساع الصدر لمساوئ الخلق ومدانئ أخلاقهم، وهذا الولد هو إسماعيل عليه السلام بلا شك لوجوه: منها وصفه بالحليم، ووصف إسحاق عليه السلام في سورة الحجر بالعليم، ومنها أن هذا الدعاء عند الهجرة حيث كان شاباً يرجو الولد، وهو بكره الذي ولد له بهذه البشرى، وهو الذي كان بمكة موضع الذبح، فجعلت أفعاله في ذبحه مناسك للحج في منى كما جعلت أفعال أمه في مكة المشرفة أول أمره عندما أشرف على الموت من العطش مناسك ومعالم هناك، وأما إسحاق عليه السلام فأتته البشرى فجأة وهو لا يرجو الولد لكبره ويأس أمرأته، ولذلك راجع في أمره ولم ينقل أنه فارق أمه

من بيت المقدس، ولو كان هو الذبيح لذكره النبي صـــلى الله عليه وســـلم بوصـفه حين سـئل عن الأكرم فقال: «يوسـف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، والرواية التي وردت بالإشارة إلى أنه الذبيح ضعيفة، بل صرح شيخنا ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف بأن في سندها وضاعاً، ولأن هذه السورة سورة التنزيه، فأحق الناس بالذكر فيها- كما سلف- أعرق الناس في قدم التجريد، وهو أولى الناس بذلك من حين كان حملاً إلى أن عولج ذبحه، ولم يذكر ظاهراً، فلو لم يكن المراد بهذا الكلام لكان ترك في هذه السورة- التي حالها هذا- من هو أرسخ الناس في الوصف المقصود بها، وذلك خارج عن نهج البلاغة التي هي مطابقة المقال لمقتضــى الحال، بل هذا الحال لا يقتضــي ذكر إسـحاق عليه السـلام، لأنه لم يعلم له تجرد متفق عليه، وما كان ذكره إلا لبيان جزاء إبراهيم عليه الســلام لما اقتضــاه مقامه في الاجسان في باب التجريد والفناء- والله الموفق.

▲ تفسير الآيات رقم [102- 107]

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)}

ولما كانت البشـــرى من الله لا تتخلف، كان التقدير : فولد له غلام كما قلنا {فلما بلغ} أن يسعى كائناً {معه} أي مع أبيه خاصة ومصاحباً له {السعي} الذي يرضـى به الأب ويوطن نفسه عنده على الولد ويثق به، ولا يتعلق مع مبلغ لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي، ولا معنى لذلك في حق إبراهيم عليه السلام ولا بالسعي، لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه، ولو أخر عنه لم يفد الاختصاص المفهم لصغر سنه المفيد للإعلام بأن يبلغ في ذلك معه ما لا يبلغه مع غيره لعظيم شـفقة الأب، واسـتحكام ميل الابن الموجب لطاعته، واختلف العلماء في تقدير ذلك بالسـن فقال بعضـهم: ثلاث عشـرة سـنة، وبعضهم: سبع سنين، ولذلك قيده بالأب لأن غيره لا يشفق على الولد فيكلفه ما ليس في وسعه، وهو لم يبلغ كمال السعي {قال} أي إبراهيم عليه السلام: {يا بني} منادياً له بصـيغة التعطف والشـفقة والتحبب، ذاكراً له بالمضـارع الحال الذي رآه عليه ومصـــوراً له، لا لتكرار الرؤيا فإنه غير محتاج إلى التكرار ولا إلى التروي، فإن الله تعالى أراه ملكوت السـماوات والأرض، وأكد لما في طباع البشـر من إحالة أن يقال ذلك على حقيقته، وإعلاماً بأنه منام وحي لا أضغاث أحلام: {إني أرى في المنام} أي وأنت تعلم أن رؤيا الأنبياء وحي {أني أذبحك} أي أعالج ذبحك في اليقظة بأمر من الله تعالى ولذلك كان كما قال، ولو عبر بالماضـي لمضـى وتم، وإنما كان في المنام في هذا الأمر الخطر جداً ليعلم وثوق الأنبياء عليهم السـلام بما يأتيهم عن الله في كل حال.

ولما كان الأنبياء عليهم السلام أشفق الناس وأنصحهم، أحب أن يرى ما عنده، فإن كان على ما يحب سر وثبته وإلا سعى في جعله على ما يحب فيلقى البلاء وهو أهون عليه، ويكون ذلك أعظم لأجره لتمام انقياده، ولتكون المشاورة سنة، فإنه «ما ندم من استشار» سبب عن ذلك قوله: {فانظر} بعين بصيرتك {ماذا} أي ما الذي {ترى} أي في هذه الرؤيا، فهو اختبار لصبره، لا مؤامرة له {قال} تصديقاً لثناء الله عليه بالحلم: {يا أبت} تأدباً معه بما دل على التعظيم والتوفير {افعل ما تؤمر} أي كل شيء وقع لك به أمر من الله تعالى ويتجدد لك به أمر منه سبحانه لأني لا أتهمك في شفقتك وحسن نظرك، ولا أتهم الله في قضائه، والقصة دليل على وقوع الأمر بالممتنع لغيره ولأكثر الأوامر منه، وقد تقدم ذلك في البقرة عند {ءأنذرتهم أم لم تنذرهم} [البقرة: 6].

ولما علم طاعته، تشوف السامع إلى استسلامه وصبره، فاستأنف قوله: {ستجدني} أي بوعد جازم لا تردد فيه صادق كما أخبر الله تعالى عنه، لا خلف فيه، وكان صادق الوعد.

ولما كان من أخلاق الكمل عدم القطع في المستقبلات لما يعلمون من قدرة الله تعالى على نقض العزائم بالحيلولة بين المرء وقلبه قال: {إن شاء الله} أي الذي اختص بالإحاطة بصفات الكمال؛ وأكد وعده بهذا الأمر الذي لا يكاد يصدق مثله بقوله: {من الصابرين} أي العريقين في الصبر البالغين فيه حد النهاية، وهو من أعظم ما أريد بقوله {وكان صادق الوعد} [مريم: 54].

ولو بيد الحبيب سقيت سماً *** لكان السم من يده يطيب

وجعل هذا الأمر العظيم في المنام دلالة على صـــدق أحوال الأنبياء نوماً ويقظة، وصــدق عزائمهم وانقيادهم لجميع الأوامر في جميع الأحوال، وروي أن الشيطان وسوس له في ذبحه فعرفه فرماه بسبع حصيات فصار ذلك شـــريعة في الجمار، ومن ألطف ما في ذلك أنهم لما كانوا في نهاية التجرد عن علائق الشواغل جعلت أفعالهم شعائر وشرائع لعبادة الحج التي روحها التجرد للوفود إلى الله تعالى.

ولما وثق منه، بادر إلى ما أمر به، ودل على قرب زمنه من زمن هذا القول بالفاء فقال: {فلما أسلما} أي ألقيا بالفعل على غاية الإخلاص حين المباشرة بجميع قواهما في يد الأمر، ولم يكن عند أحد منهما شـــيء من إباء ولا امتناع ولا حديث نفس في شيء من ذلك {وتلّه} أي صرعه إبراهيم عليهما السلام صرعاً جيداً سريعاً مع غاية الرضا منه والمطاوعة من إسماعيل عليه السلام، ودل على السرعة باللام الواقعة موقع «على» فقال: {للجبين *} أي أحد شقي الجبهة، وهي هيئة إضجاع ما يذبح، وهذا من قولهم: تله- إذا صرعه، وبه سمي التل من التراب، وتلك فلاناً في يدك أي دفعته سلماً، والجبين- قال في الصحاح: فوق الصدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها.

ولما كان من الواضـــح أن التقدير جواباً لما عالج ذبحه بعزم أمضـــى من السنان، وجنان في ثباته أيما جنان، فمنعناه من التأثير بقدرتنا، ورددنا شفرته الماضية عن عنقه اللينة بأيدينا وقوتنا، عطف عليه قوله: {وناديناه} وفخم

هذا النداء بحرف التفسـير فقال: {إن يا إبراهيم*} ولما كان محل التوقع الثناء عليه قال: {قد صدقت} أي تصديقاً عظيماً {الرؤيا} في أنك تذبحه، فإنك قد عالجت ذلك، وبدلت الوسـع فيه، وفعلت ما رأيته في المنام، فما انذبح لأنك لم تر أنك ذبحته، فاكفف عن معالجة الذبح بأزيد من هذا. ولما كان التقدير: فجزيناك على ذلك لإحسانك فوق ما تحب، وجعلناك إماماً للمتقين، ووهبناك لسان صدق في الآخرين، وجعلنا آلك هم المصطفين، وملأنا منهم الخافقين، علله بأن ذلك سنته دائماً قديماً وحديثاً فقال ما يأتي.

ولما كان صلى الله عليه وسلم في همة الذبح وعزمه، فكانت تلك الهمة التي تقصر عنها رتبها السها والسماك، والعزمة التي تتضاءل دون عليّ مكانتها وسني عظمتها عوالي الأفلاك، لا تسكن عن ثورانها، ولا تبرد عن غليانها وفورانها، إلا بأمر شديد، وقول جازم أكيد، قال مؤكداً تنبيهاً على أن همته قد وصلت إلى هذا حده، وأن امتثال الأمر أيسر من الكف بعد المباشرة بالنهي: {إنا كذلك} أي مثل هذا الجزاء العظيم {نجزي المحسنين *}.

ولما كان جزاءه عظيماً جداً، دل على عظمه بأن علل إكرامه به بقوله معجباً ومعظماً مؤكداً تنبيهاً على أنه خارق للعادة: {إن هذا} أي الأمر والطاعة فيه {لهو البلاؤا} أي الاختبار الذي يحيل ما خولط به كائناً ما كان {المبين *} أي الظاهر في بابه جداً المظهر لرائيه انه بلاء.

ولما قدم ما هو الأهم من نهيه عن علاجه، ومن البشارة بالجزاء، ذكر فداءه بما جعله سنة باقية يذكر بها الذكر الجميل على مر الأيام وتعاقب السنين، ولما كان المفتدى منه من كان الأسـير في يده، وكان إسـماعيل في يد

إبراهيم عليهما السـلام، وهو يعالج إتلافه، جعل تعالى نفسـه المقدس فادياً لأن الفادي من أعطى الفداء، وهو ما يدفع لفكاك الأسـير، وجعل إبراهيم عليه السـلام مفتدى منه تشـريفاً له وإن كان في الحقيقة كالآلة التي لا فعل لها، والله تعالى هو المفتدى منه حقيقة فقال: {وفديناه} أي الذبيح عن إنفاذ ذبحه وإتمامه تشريفاً له {بذبح} أي بما ينبغي أن يذبح ويكون موضعاً للذبح، وهو كبش من الجنة، قيل: إنه الذي قربه هابيل فتقبله الله منه {عظيم *} أي في الجثة والقدر والرتبة لأنه مقبول ومسـتن به ومجعول ديناً إلى آخر الدهر.

▲ تفسير الآيات رقم [108- 113]

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)}

ولما كان سـبحانه إذا منّ بشـيء علم أنه عظيم، فإذا ذكر الفعل وترك المفعول أراد فخامته وعظمته، قال: {وتركنا عليه} أي على الذبيح شيئاً هو في الحسن بحيث يطول وصفه. ولما كان بحيث لا ينسى قال: {في الآخرين *} ومن هذا الترك ما تقدم من وصفه بصدق الوعد، لأنه وعد بالصبر على الذبح فصدق.

ولما عظم الغلام، استأنف تعظيم والده بما يدل مع تشـريفه على سـلامته بقوله: {سلام على إبراهيم *} أي سلامة له ولولده وتسليم وتحية وتكريم في

الدارين ولما كان هذا خطاباً لمن بعده عليه السلام وهم كلهم محبون مجلون معظمون مبجلون لم يكن هناك حال يحوج إلى تأكيد فقال: {كذلك} أي مثل هذا الجزاء العظيم {نجزي المحسـنين *} من غير أن يذكر «أن» المؤكدة، ولما كانت أهل الملل كلها متفقة على حبه، وكان كلهم يدعي اتباعه ورتبة قربه، قال معللاً لجزائه بهذا المدح في سـياق التأكيد اسـتعطافاً لهم إلى اتباعه في الإيمان وتكذيباً لمن ينكر أن يكون الإيمان موجباً للإحسان: {إنه من عبادنا} أي الذين يستحقون الإضافة في العبودية والعبادة إلينا {المؤمنين *} فلا يطمع أحد عري عن الإيمان في رتبة أتباعه، قال الرازي: الإيمان المطلق الحقيقي شـهود جلال الله ووحدانيته والطمأنينة إليه في كل محبوب ومكروه، وترك المشـيئة لمشـيئته والانقياد لأمره في جميع أحواله. ولما أتم قصته في أمر الذبيح، وشرع في ذكر ما جازاه به على ذلك، جعل منه أمر إسحاق عليه السلام فقال: {وبشرناه} أي جزاء على صبره في المبادرة إلى امتثال الأمر في إعدام إسماعيل عليه السلام {بإسحاق} مولوداً زيادة له بعد ما سلمنا إسماعيل عليه السلام حال كونه {نبياً} أي في قضائنا أو بوجوده مقدرة نبوته. ولما كان هذا اللفظ قد يطلق على المتنبئ، أزال إشـكال هذا الاحتمال وإن كان واهياً بقوله: {من الصـالحين *} أي العريقين في رتبة الصـلاح ليصـلح لأكثر الأوصـاف الصـالحة. ولما أثنى على إبراهيم عيله السـلام بما عالج مما لم يحصـل لغيره مثله، وكان من أعظم جزاء الإنسـان البركة في ذريته قال: {وباركنا عليه} أي على الغلام الحليم وهو الذبيح المحدث عنه الذي جر هذا الكلام كله الحديث عنه، وكان آخر ضـمير

محقق عاد عليه الهاء في «وفديناه» ثم في «وتركنا عليه في الآخرين» وهذا عندي أولى من إعادة الضمير على إبراهيم عليه السلام لأنه استوفى مدحه، ثم رأيت حمزة الكرماني صنع هكذا وقال: حتى كان محمد صلى الله عليه وسلم والعرب من صلبه. {وعلى إسحاق} أي أخيه، قال حمزة الكرماني: حتى كان إسرائيل الله والأسباط من صلبه، وقال غيره: خرج من صلبه ألف نبي أولهم يعقوب وآخرهم عيسى عليه السلام.

{ومن ذريتهما } أي الأخوين ولا شك أن هذا أقرب وأقعد من أن يكون الضمير للأب والابن لأن قران الأخوين في الإخبار عن ذريتهما أولى من قران الابن مع أبيه في ذلك، فيكون الابن حينئذ من جملة المخبر عنه بذرية الأب {محسن وظالم لنفسه} حيث وضعها بما سبب عن المعاصي في غير موضعها الذي يحبه، وهذا مما يهدم أمر الطبائع حيث كان البر يوجد من الفاجر والفاجر يوجد من البر.

ولما كان الإنسان، وإن اجتهد في الإحسان، لا بد أن يحتاج إلى الغفران، لما له من النقصان، لأن رتبة الإلهية لا تصل إلى القيام بحقها العوائق البشرية، بين أن الظلم المراد هنا إنما هو التجاوز في الحدود بغاية الشهوة فقال: {مبين *} وأما غير ذلك فمغفور كما قرر في نحو {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} «ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة» {وأن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم} [النساء: 31].

قصة ذبح إبراهيم لولده عليهما السلام من التوارة وبيان أنهم بدلوها، قال مترجمهم: فغرس إبراهيم ببئر سبع غرساً، وبنى هنالك باسم الرب إله

العالمين، وسكن إبراهيم أرض فلسطين– يعني عند تلك البئر – أياماً كثيرة. ولما كان من بعد هذه الخطوب امتحن الله إبراهيم، وقال له : يا إبراهيم ! فقال : لبيك، فقال له : انطلق بابنك الوحيد إسحاق الذي تحبه إلى أرض الأمورانيين– وفي نسخة : إلى بلدة العبادة– وأصعده إليّ قرباناً على أحد تلك الجبال الذي أقول لك، فأدلج إبراهيم باكراً فأسرج حماره وانطلق بغلاميه وإسحاق ابنه، وشق حطباً للقربان ونهض وانطلق إلى الموضع الذي قال الله له، وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم بصره ونظر إلى ذلك الموضع من بعيد فقال لغلاميه: امكثا هاهنا عند الحمار، وأنا والغلام ننطلق إلى هاهنا نصل ونرجع إليكما، فأخذ إبراهيم حطب القربان، وحمله إسحاق ابنه، وأخذ معه ناراً وسكيناً، وانطلقا كلاهما جميعاً، وقال إسحاق لأبيه إبراهيم: يا أبة، فقال له: لبيك، فقال له: هذه النار والحطب، أين حمل القربان، فقال إبراهيم: الله يعد لنا حملاً للقربان يا بني، فانطلقا جميعاً حتى انتهيا الى الموضع الذي قال الله، فبنى هنالك إبراهيم مذبحاً ونضد عليه الحطب وكتف إسحاق فوضعه في أعلى المذبح على الحطب، ومد يده إبراهيم فأخذ السكين ليذبح ابنه، فدعاه ملاك الرب من السماء وقال: يا إبراهيم يا إبراهيم، فقال: لبيك! فقال: لا تبسط يدك على الغلام ولا تصنع به شيئاً لأنك قد أظهرت الآن أنك تتقي الله إذا لم تمنعني ابنك الوحيد، فمد إبراهيم بصره فإذا كبش معلق في شجرة بقرنيه، فانطلق إبراهيم فأخذ الكبش فأصعده قرباناً بدل ابنه اسحاق، فسمى إبراهيم ذلك الموضع «الله يتجلى» كما يقال: الله في هذا الجبل، الله يتجلى، فدعا ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال : بي

أقسمت، يقول الرب: بدل ما صنعت هذا الصنيع ولم تمنعني ابنك الوحيد لأباركنك بركة تامة ولأكثرن نسلك مثل كواكب السماء، ومثل الرمل الذي على شاطئ البحر ويرث زرعك أراضي أعدائي وفي نسخة: أعداءه- ويتبارك بنسلك جميع الشعوب لأنك أطعتني، فرجع إبراهيم إلى غلاميه وانصرفوا جميعاً إلى بئر السبع وأقام ثمَّ- وفي نسخة: وسكن إبراهيم بئر السبع- انتهى ما عندهم بلفظه فانظر إليه واجمع بينه وبين ما تقدم في البقرة من قصة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام تجدهم قد بدلوها بلا شك، لأن الكلام ينقض بعضه بعضاً، وذلك أنه قال في هذه القصة «انطلق بابنك الوحيد» وكرر وصفه بالوحيد في غير موضع، وهذا الوصف إنما يكون حقيقة لإسماعيل عليه السلام وهو دون البلوغ، وأما إسحاق عليه السلام فلم يكن وحيداً ساعة من الدهر، بل ولد وإسماعيل عليه السلام ابن ثلاث عشرة سنة ونيف بشهادة ما عندهم من التوراة، وقوله في آخر القصة «ويتبارك بنسلك جميع الشعوب» لا يكون في غاية الملاءمة إلا لإسماعيل عليه السلام، وأما إسحاق عليه السلام فإنما بورك بنسله الأراضي المقدسة فقط، ولم يتبعهم من غيرهم إلا قليل، بل كانوا هم في كل قليل يتبعون غيرهم على عبادة أوثانهم بشهادة توراتهم وأسفار أنبيائهم يوشع بن نون ومن بعده عليهم السلام، وأما نسل إسماعيل عليه السلام فتبعهم على الدين الحق من جميع الأمم ما لا يحصى عدده ولم يتبعوا هم بعد محمد صلى الله عليه وسلم أحداً من الأمم على عبادة غير الله- هذا وفي المتقدم في سورة البقرة أن هبة سارة أمتها هاجر رضي الله عنها لإبراهيم عليه السلام كان بعد أن

سكن كنعان بعشر سنين، وأن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام وهو ابن ست وثمانين سنة، وأن الله تعالى أمره بالختان وهو ابن تسع وتسعين سنة، وأنه في ذلك الوقت بشر بإسحاق عليه السلام، فختن إسماعيل عليه السلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وثم ولد له إسحاق عليه السلام وقد أتى عليه مائة سنة، ثم قال ما نصه: وصنع إبراهيم يوم فطم إسحاق ابنه مأدبة عظيمة فأبصرت سارة ابن هاجر المصرية المولود لإبراهيم عليه السلام لاعباً، فقالت لإبراهيم عليه السلام: أخرج هذه الأمة عني، لأن ابن الأمة لا يرث مع إسحاق ابني، فشق هذا الأمر على إبراهيم لمكان ابنه، فقال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: لا يشقن عليك حال الصبي وأمتك، أطع سارة في جميع ما تقول لأن نسلك إنما يذكر بإسحاق، وابن الأمة أجعله لشعب كثير لأنه من ذريتك، فغدا إبراهيم عليه السلام باكراً وأخذ خبزاً وإداوة من ماء، فأعطاها هاجر وحملها الصبي والطعام- إلى آخر ما في البقرة فقوله «إن هاجر طردت بعد فطام إسحاق وابنها تحمل» لا يصح، وقد تقدم أن عمره يوم فطام إسحاق خمس عشرة سنة، وتقدم أيضاً أن سارة أمرته بطردها وهي حبلى، وأنه سلمها لها فطردتها، وان الملك لقيها فبشرها بإسماعيل ولم يذكر في نسختي- وهي قديمة جداً- شيئاً يدل على رجوعها، وأما في نسخة عندهم فقال: إن الملك قال لها: ارجعي إلى سيدتك واستكدي تحت يدها- ولم يذكر أنها رجعت، وقد صح الخبر عندنا بقول نبينا صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم عليه السلام وضع هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام، عند البيت الحرام وهو يرضع، واستمرا هناك

إلى أن ماتت هاجر رضـــي الله عنها، وتزوج إســماعيل عليه الســـلام وبنى البيت مع أبيه عليهما الســلام، وقوله «لأن نســلك إنما يذكر بإســحاق عليه الســلام» غير مطابق للواقع، فإن شــهرة العرب بإبراهيم عليه الســلام أن لم تكم أن أكثر من شــهرة بني إســحاق بذلك فهي مثلها، وخبر الله لا يتخلف، فدل هذا كله أنهم بدلوا القصة وحرفوها، فلا متمسك فيها لهم، ودلالتها على أن الذبيح إســماعيل عليه الســـلام أولى من دلالتها على غير ذلك لوصــفه بالوحيد– والله أعلم كيف كانت القصة قبل التبديل؟ ومما يدل على ما فهمت من تبديلهم لها ما قال البغوي: قال القرظي يعني محمد بن كعب–: ســـأل عمر بن عبد العزيز رجلاً كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه: أي ابني إبراهيم عليه السلام أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل يا أمير المؤمنين! إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشـر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله بذبحه ما كان، ويزعمون أنه أبوهم، ومن الدليل على أنه إســماعيل عليه الســـلام أن الله تعالى لما بشـر بإســحاق بشـر بأنه يولد له يعقوب، فلا يليق الامتحان به بعد علمه بأنه لا يموت حتى يولد له، ومن الدليل على ذلك أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إســـماعيل عيله الســـلام إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في زمان ابن الزبير والحجاج، قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة، وعن ابن عباس رضـي الله عنهما قال: والذين نفسـي بيده! لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة، وقال الأصـــمعي: ســـألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح: إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا أصيمع!

أين ذهب عقلك؟ متى كان إسـحاق بمكة؟ إنما كان إسـماعيل بمكة وهو الذي بني البيت مع أبيه- انتهى ما قال البغوي.

وفي كتاب الحج من سـنن أبي داود أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال لعثمان- وهو الحجبي رضـي الله عنه: «إني نسـيت أن آمرك أن تخمر القرنين فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي» ورواه عبد الرزاق في جامعه ولفظه أن عثمان بن شيبة رضـي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «إني رأيت قرني الكبش فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل مصلياً»- هكذا قال: عثمان بن شيبة، ولعله ابن طلحة، فيكون المتقدم ويكون تسمية أبيه شيبة وهما، أو يكون شـيبة بن عثمان وهو ابن عم الذي عند أبي داود فأنقلب- والله أعلم، وروى عبد الرزاق أيضـاً عن ابن جريج قال: أخبرنا عبد الله بن شيبة بن عثمان، وسألته هل كان في البيت قرنا كبش؟ قال: نعم، كانا فيه، قلت: أرأيتهما؟ قال: حسبت، ولكن أخبرني عبد الله بن بابيه أن قد رآهما، قال: وغيره قد رآهما فيه، قال: ويقولون: إنهما قرنا الكبش الذي ذبح إبراهيم عليه السلام، قال ابن جريج وقالت صفية ابنة شيبة: كان فيه قرنا الكبش، قال ابن جريح: وحدثت أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانا فيه. قال: وحدثت عن عجوز قلت: رأيتهما فيه، ومما يؤيد القول بأنه إسـماعيل عليه السلام وصف الله تعالى له بأنه صادق الوعد، ولا صدق في وعد أعظم من صـدقه في وعده بالصـبر على الذبح، وممن قال من بني إسـرائيل أنه إسـماعيل عليه السـلام عبد الله بن سـلام رضـي الله عنه- حكاه عن ابن

الجوزي، وعد القائلين بكل من القولين من الصـــحابة وغيرهم فقال : إن القائلين بأنه إســحاق: عمر وعلي والعباس وابن مسـعود وأبو موســى وأبو هريرة وأنس رضي الله عنهم، وبأنه إسماعيل: ابن عمر ، وأن الرواية اختلفت عن ابن عباس رضـــي الله عنهما، فروى عنه عكرمة أنه إســحاق، وعطاء ومجاهد والشـعبي وأبو الجوزاء ويوسـف بن مهران أنه إسـماعيل، فعلم من هذا رجحان القول بأنه إســماعيل، لأن ابن عمر وابن عباس رضـــي الله عنهما تأخرا بعد من ذكر من أكابر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فلولا أنه رجح عندهما ما خالفا أبويهما، ونقل عكرمة عن ابن عباس بموافقة أبيه لا يقدح في ذلك بل يؤيده لأن الأكثر كما ترى رووا عنه الثاني، فلولا أنه صــح عنده ما رجع عن الأول الذي هو موافق لرأي أبيه، ولأجل ثباته عليه اشتهر عنه- والله أعلم.

▲ تفسير الآيات رقم [114- 122]

{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَــى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَــرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْـتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآَخِرِينَ (119) سَــلَامٌ عَلَى مُوسَــى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)}

ولما ذكر هؤلاء الســـادة الذين لهم من رتبة التجرد والنزاهة ما تقدم بيانه، وختمهم بأخوين ما اجتمعا قط، وكان من أعظم المقاصـد بذكرهم المنة على

من اتصـف بمثل صـفاتهم بالقرب والنصـرة تسـلية وترجية للنبي صـلى الله عليه وسـلم ولمن اتبعه من المؤمنين ممن قارب- من شـدة البلاء والقهر- اليأس من النصـــر، أتبعهم بأمثالهم في التجرد وابتدأهما بأخوين افترقا حين ولادة الثاني على حالة لا يمكن الاجتماع معها عادة، ثم اجتمعا في الباطن مع الافتراق في الظاهر ثم افترقا على حالة يبعد الاجتماع معها عادة ثم اجتمعا اجتماعاً لم يفترقا منه إلا بالموت وبدأهما بأول من تجرد منهما من حين ولادتـه إلى أوان هجرتـه، ثم من حين رجعتـه إلى أن جرد آلـه- وهم بعض ذرية إبراهيم عليه السـلام- وأنقذهم من علائق الكفرة، ثم تجرد معهم هو وأخوه عن المدن والقرى وأكثر علائق البشـر، ملازمين البراري والفلوات حيث يكثر ظهور الكلمة مع إرســال الله إليهما بمعادن الحكمة إلى أن ماتا عليهما الصـلاة والسـلام والتحية والإكرام، فقال مؤكداً تنبيهاً لمن يعد نصـر المؤمنين محالاً، عاطفاً على ما تقديره: فلقد أنشأنا منهما من الأمم ما يعجز الوصف ويفوت الحصر، ومننا على كثير منهم بالإحسان من ولد إسماعيل عليه الســلام إلى أن غير دينه عمرو بن لحي، ومن ولد إســحاق يعقوب والأسـباط عليهم السـلام ومن شـاء الله من أولادهم: {ولقد مننا} أي أنعمنا إنعاماً مقطوعاً به بما لنا من العظمة، على أول من أظهر لســان الصــدق لإبراهيم عليه السـلام وذريته اظهاراً تاماً. وبدأهما بأعرقهما- كما تقدم- في التجرد وأحقها بالتقدم فقال: {على موســى} أحد أعيان المتجردين، ومن له القدم الراســخ في ذلك {وهارون*} أي عين من تجرد مع أخيه ووافقه أتم

موافقة، ووازره أعظم موازرة، بما أتيا بـه من النبوة والكتاب وغير ذلك من أنواع الخطاب.

ولما كان جل المقصـــود- كما مضـــى- مقام التجرد، والإعلام بنصـــر المستضعفين من المؤمنين، قال: {ونجيناهما وقومهما} أي بني إسرائيل وقد كانوا مرت لهم دهور في ذل لا يقاربه ذل المؤمنين من أصـــحاب محمد صـلى الله عليه وسـلم في أول أمرهم {من الكرب العظيم *} أي الاسـتبعاد، وما يتبعه من عظائم الأنكاد، وكان ذلك بهلاك القبط الذين اســـتمروا على الضـلال، وهم أضـعاف أضـعاف بني إسـرائيل، إلى أن أهلكناهم فلم يفلت منهم إنســـان، فصـــح لبني إســـرائيل حينئذ التجرد وزال عنهم ذل التجبر والتمرد.

ولما بين نعمة النجاة من الأســـر، أتبعها نعمة الالتذاذ بالنصـــر، فقال: {ونصرناهم} أي موسى وهارون عليهما السلام وقومهما على كل من نازعهم في ذلك الزمان من فرعون وغيره {فكانوا هم} أي خاصـــة {الغالبين *} أي على كل من يسـومهم سـوء العذاب، وهو فرعون وآله وعلى جميع من ناووه أو ناواهم، فاحذروا يا معشـــر قريش والعرب من مثل ذلك، ولقد كان ما حذرهم منه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم على أعظم ما يمكن أن يكون إلا نبينا صلى الله عليه وسلم لما كان نبي الرحمة لين الله قلوبهم حتى ردهم إلى ما اغتبطوا به من متابعته، فصاروا به ملوك الدنيا والآخرة.

ولما كانت فائدة النصرة التمكن من إقامة الدين قال: {وآتيناهما} أي بعظمتنا بعد إهلاك عدوهم {الكتاب المســتبين *} أي الجامع البين الذي هو لشــدة

بيانه طالب لأن يكون بيناً وهو كذلك فإنه ليس شـيء من الكتب مثل التوراة في سـهولة مأخذها، وجمع هارون عليه السـلام معه في الضـمير لأنه مثله في تقبل الكتاب والعمل بجميع ما فيه والثبات على ما يدعو إليه وإن كان نزوله خاصاً بموسى عليه السلام: {وهديناهما الصراط} أي الطريق الواضح في الإيصـال إلى المقصـود {المسـتقيم *} أي الذي هو لعظيم تقومه كأنه طالب لأن يكون قويماً، فهو في غاية المحافظة على القوم فلا يزيغ أصـلاً، ولذلك هو شرائع الدين القيم.

ولما كان الذكر الجميل عند ذوي الهمم العالية والعزائم الوافية هو الشـرف قال: {وتركنا عليهما} أي ما تعرفون من الثناء الحسن {في الآخرين *} أي كل من يجيء بعدهما إلى يوم الدين. ولما ظهر بهذا أن لهما من الشـرف والسؤدد أمراً عظيماً كانت نتيجته: {سلام} أي عظيم {على موسى} صاحب الشـريعة العريق في الاتصـاف بمقصـود السـورة {وهارون *} وزيره وأخيه.

ولما كان نصـر النبي صـلى الله عليه وسـلم بمن معه من الضـعفاء على قريش وسـائر العرب عند قريش في غاية البعد، وكان التقدير : فعلنا معهما ذلك لإحسـانهما، علله بما يقطع قلوب قريش في مظهر التأكيد فقال: {إنا كذلك} أي مثل هذا الجزاء {نجزي} أي دائماً في كل عصـر {المحسنين *} أي العريقين في هذا الوصـف؛ ثم علل إحسـانهما وبينه وأكده ترغيباً في مضـمونه، وتكذيباً لمن يقول: إن المؤمنين لا ينصـرون، بقوله: {إنهما من عبادنا} أي الذين محضـوا العبودية والخضـوع لنا {المؤمنين *} أي الثابتين في وصف الإيمان.

▲ تفسير الآيات رقم [123– 130]

{وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130)}

ولما كان إلياس أعظم المتجردين من أتباعهما المجددين لما درس من أحكام التوراة، وكان ترك أحكامها مع ما وصفت به من البيان وما دعت إليه من الاستقامة في غاية من الضلال تكاد أن لا يصدق مثلها أشار إلى الزيغ عنه بياناً لأن القلوب بيده سبحانه فقال مؤكداً: {وإن إلياس} أي الذي كان أحد بني إسرائيل عند جميع المفسرين إلا ابن مسعود وعكرمة، وهو من سبط لاوي، ومن أولاد هارون عليه السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو عم اليسع عليهم السلام، وأرسلناه إلى من كان منهم في أرض بعلبك ونواحيها، فلما لم يرجعوا إليه نزعنا عنه الشهوات الإنسانية وخلقناه بالأوصاف الملكية، ولا يبعد أن يكون الداعي إلى تسميته بهذا الاسم ما سبق في علم الله أنه ييأس ممن يدعوهم إلى الله فيكون ممن يأتي يوم القيامة وما معه إلا الواحد أو الاثنان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كما رواه الشيخان: البخاري في الرقاق والطب، ومسلم في الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما: «عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه رهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد»، فجعل سبحانه اسمه مناسباً لأمره في قومه بيأسه منهم حين فر إلى الجبال من شرهم، ويأسهم

من القدرة على قتله، فإنهم اجتهدوا في ذلك حتى أعياهم، وأدل دليل على هذا المعنى قراءة ابن عامر بخلاف عنه بوصل الهمزة في الدرج وفتحها في الابتداء، وإن قال العلماء كما حكاه السمين في إعرابه: إن ذلك من تلاعب العرب بالأسماء العجمية، قطعوا همزته تارة ووصلوها أخرى، يعني فخاطبهم سبحانه بما ألفوه من لسانهم {لمن المرسلين} أي إلى من بدل أمر التوارة ونابذ ما دعت إليه {إذ قال لقومه} منكراً عليهم ما من حقه الإنكار بقوله: {ألا تتقون *} أي يوجد منكم تقوى وخوف، فإن ما أنتم عليه يقتضي شراً طويلاً، وعذاباً وبيلاً، وما أنتم عليه من السكون والدعة يقتضي أنه لا خوف عندكم أصلاً، وذلك غاية الجهل والاغترار بمن تعلمون أنه لا خالق لكم ولا رازق غيره.

ولما كان هذا الإنكار سبباً للإصغاء، كرره مفصحاً بسببه فقال: {أتدعون بعلاً} أي إلهاً ورباً، وهم صنم كان لهم في مدينة بعلبك كان من ذهب طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه، فكان الشيطان يدخل في جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها، وهم أربعمائة ويعلمونها الناس، ويحتمل أن يكون علماً على الصنم المذكور فيكون المفعول الثاني منوياً، وحذف ليفهم الدعاء الذي لا دعاة يشبهه وهو الدعاء بالإلهية، ومن قرأ شاذاً «بعلاء» بوزن «حمراء» فهو إشارة إلى كثرة حث امرأة الملك على عبادة بعل وقتل إلياس عليه السلام، وطاعة زوجها لها في ذلك- كما حكاه البغوي، فاستحق التأنيث لذلك، فأنث لكثرة ملابستها له، والجنسية علة الصنم.

ولما كان دعاؤهم إياه للعبادة بينه بقوله: {وتذرون} ومادة «وذر» تدور على ما يكره، فالمعنى: وتتركون ترك المهمل الذي من شأنه أن يزهد فيه، ولو قيل: وتدعون– تهافتاً على الجناس لم يفد هذا وانقلب المراد. ولما كان الداعي لا يدعو إلا بكشف ضر أو إلباس نفع، فكان لا يجوز أن يدعو إلا من يقدر على إعدام ما يشاء وإيجاد ما يريد، قال منبهاً لهم على غلطهم في الفعل والترك: {أحسن الخالقين *} أي وهو من لا يحتاج في الإيجاد والإعدام إلى أسباب فلا تعبدونه.

ولما كان الإنسان يعلم يقيناً أنه لم يرب نفسه إلا بالإنشاء من العدم ولا بما بعده، وكان الإحسان أعظم عاطف للإنسان، قال مبيناً لمن أراد مذكراً لهم بإحسانه إليهم وإلى من يحامون عنهم، ويوادون من كان يوادهم بالتربية بعد الإنشاء من العدم الذي هو أعظم تربية مفخماً للأمر ومعظماً بالإبدال في قراءة الجماعة بالرفع: {الله} فذكر بالاسم الأعظم الجامع لجميع الصفات تنبيهاً على أنه الأول المطلق الذي لم يكن شيء إلا به {ربكم} أي المحسن إليكم وحده. ولما كانوا ربما أسندوا إيجادهم إلى من قبلهم غباوة منهم أو عناداً قال: {ورب آبائكم الأولين *} أي الذين هم أول لكم، فشمل ذلك آباءهم الأقربين، ومن قبلهم إلى آدم عليه السلام.

ولما كان من أعظم المقاصد– كما مضى– التسلية والترجية، سبب عن دعائه قوله: {فكذبوه} ولما كانت الترجية مستبعدة، سبب عن التكذيب قوله مؤكداً لأجل تكذيبهم: {فإنهم لمحضرون *} أي مقهورون على إقحامنا إياهم فيما نريد من العذاب الأدنى والأكبر، وذكرهم بالسوء واللعن على مر الآباد

وإن كرهوا {إلا عباد الله} أي الذين علموا ما لهم من مجامع العظمة فعملوا بما علموا فلم يدعوا غيره فإنهم لم يكذبوا؛ ثم وصـــــفهم بما أشـــــار إليه من الوصـف بالعبودية والإضـافة إلى الاسم الأعظم فقال: {المخلصين *} أي لعبادته فلم يشركوا به شيئاً جلياً ولا خفياً، فإنهم ناجون من العذاب.

ولما جاهد في الله تعالى وقام بما يجب عليه من حسن الثناء، جازاه سبحانه فقال: عاطفاً على «فإنهم لمحضـرون» {وتركنا عليه} أي من الثناء الجميل وجميع ما يسره: {في الآخرين *} أي كل من كان بعده إلى يوم الدين. ولما كان السلام اسماً جامعاً لكل خير لأنه إظهار الشرف والإقبال على المسلم عليه بكل ما يريد، أنتج ذلك قوله: {سلام} ولما كان في اسمه على حسب تخفيف العرب له لغات إحداهما توافق الفواصـــــل، فكان لا فرق في تأدية المعنى بين الإتيان بما اتفق منها، وكان ما كثرت حروفه منها أضخم وأجل وأفخم، وكان الســـياق بعد كثير من مناقبه لنهاية المدحة، كان الأحســـن التعبير بما هو أكثر حروفاً وهو موافق للفواصـــــل ليفيد ذلك تمكينه في الفضـائل ولتحقق أنه اسـم أعجمي لا عربي مشـتق من الياس وإن أوهمت ذلك قراءة ابن عامر بوصـل همزته فقال: {على آل ياسين *} ومن قرأ آل يس فيجوز أن يكون المراد في قراءته ما أريد من القراءة الأخرى لأن أهل اللغة قالوا : أن الآل هو الشـــخص نفســـه، ويس إما لغة في إلياس أو اختصـرت اللغة الثانية التي هي إلياسين فحذف منها الهمزة المكسـورة مع اللام، ويجوز أن يكون المراد بآله أتباعه، ويكون ذلك أضـــخم في حقه لما تقدم مما يدعو إليه الســياق، ويجوز أن يقصـــد بهذه القراءة جميع الأنبياء

المذكورين في هذه الســــورة الذين هو أحدهم، أي على الأنبياء المذكورين عقب ســـــورة يس دلالة على ما دعت إليه معانيها من الوحدانية والرســـالة والبعث وإذلال العاصـــي وإعزاز الطائع المجرد لنفســـه في حب مولاه عن جميع العوائق، القاطع للطيران إليه أقوى العلائق، وخص بهذا هذه القصـــة لأنها ختام القصص المسلم فيها على أهلها.

▲ تفسير الآيات رقم [131- 135]

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِـنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135)}

ولما أظهر سـبحانه شـرف إلياس عليه السـلام أو الأنبياء الذين هو أحدهم، علله مؤكداً له تنبيهاً على أنه لا بد من إعلاء النبي صـلى الله عليه وسـلم وأتباعه على كل من يناويهم وإن كذبت بذلك قريش فقال : {إنا كذلك } أي مثل هذا الجزاء العظيم {نجزي المحسـنين *} أي الذين هو من أعيانهم؛ ثم علل الحكم بإحسـانه مؤكداً لما مضـى في مثله بقوله: {إنه من عبادنا} أي الجديرين بالإضافة إلينا {المؤمنين *} ويستفاد من التأكيد أيضاً التنبيه على رسـوخ قدمه في الإيمان وأنه بحيث تشـتد الرغبة ويقوى النشـاط في الإخبار به على ذلك الوجه.

ولما أتم ما أراد سـبحانه من أمور المحسـنين من ذرية إبراهيم عليه السـلام المرسلين إلى ذريته في التسلية، والترجية وقدمهم لأن المنة عليهم منه عليه،

والإنسان بابنه أسر منه بقريبه، وهم الذين أظهر الله بهم وما ترك عليه، من لسان الصدق في الآخرين. أتبعهم قصة ابن أخيه مع أهل بلاد الأردن من غير قومهم، فقال مؤكداً للتنبيه على نصـــر المؤمنين وإن كانوا في القلة والذلة على حال لا يظن انجباره وتكذيباً لليهود المكذبين برسالته أو الشاكين فيها: {وإن لوطاً} أي الذي جرد نفسه من مألوفها من بلاده وعشائره بالهجرة مع عمه إبراهيم عليهما السلام {لمن المرسلين *} ولما كان جل المقصود تبشـــير المؤمنين وتحذير الكافرين، وكان مخالفه كثيراً، وكان هو غريباً بينهم، قال في مظهر العظمة: {إذ نجيناه} أي على ما لمخالفيه من الكثرة والقوة، ولم يذكرهم لأنهم أكثر الناس انغماساً في العلائق البشرية والقاذورات البهيمية التي لا تناســب مراد هذه الســورة المنبني على الصــفات الملكية {وأهله أجمعين *} ولما كان الكفر قاطعاً للســبب القريب كما أن الإيمان واصلاً للسبب البعيد قال: {إلا عجوزاً} أي وهي امرأته فإن كفرها قطعها عن الدخول في حكم أهله فجردوا عنها، كائنة {في الغابرين *} أي الباقين في غبرة العذاب ومساءة الانقلاب.

▲ تفسير الآيات رقم [136- 142]

{ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142)}

ولما ذكر نجاته وابتدأ بها اهتماماً بالترجية قال مخوفاً معبراً بأداة البعد إفادة مع الترتيب لعظيم رتبة ما دخلت عليه : {ثم دمرنا } أي أهلكنا بما لنا من العظمة {الآخرين *} أي فجردنا الأرض من قاذوراتهم ونزهنا البلاد المقدسة منهم ومن أرجاس فعلاتهم، فلم نبق منهم أحداً ولا احتجنا في إهلاكهم إلى استئذان أحد. ولما كان المقصود من مثل هذا تحذير المخالفين، وكان تجار قريش يرون البقعة التي كانت فيها أماكن قوم لوط، وهي البحيرة المعروفة، ولا يعتبرون بهم، عدّوا منكرين للمرور عليهم فأبرز لهم الكلام في سياق التأكيد فقيل: {وإنكم} أي فعلنا بهم هذا والحال أنكم يا معشر قريش {لتمرون عليهم} أي مواضع ديارهم في تجاراتكم إلى الشام {مصبحين *} أي داخلين في الصباح الوقت الذي قلبنا مدائنهم عليهم فيه، ونص عليه للتذكير بحالهم فيه.

ولما كان لليل منظر في الهول غير منظر النهار قال: {وبالليل} ولما كان أمرهم كافياً للعاقل في التقوى، أنكر عليهم تماديهم فيما كان سبب أخذهم من تكذيب الناصح فقال : {أفلا تعقلون *} أي يكون لكم عقول فتعتبروا بحالهم، فتخافوا مثل مآلهم، فتصدقوا رسولكم فإنكم أجدر منهم بالأخذ لأنه منكم وأنتم تعرفون من شرف أصله وكريم قوله وفعله ما لا يعرفه أولئك من رسولهم.

ولما أكمل سبحانه ما أراد من أمور من كان على أيديهم هلاك في الدنيا أو في الآخرة، ختم بمن آل أمر قومه إلى سلامة وإيمان ونعمة وإحسان تغليباً للترجية على التأسية والتعزية فقال مؤكداً لأن ما يأتي من ذكر الاباق وبما

أوهم شيئاً في أمره: {وإن يونس} أي أحد أنبياء بني إسرائيل وهو يونس بن متى عليه السلام، حكى البغوي في قصة إلياس عليه السلام أنه لما أرسله الله تعالى إلى سبطه من بني إسرائيل الذين كانوا في مدينة بعلبك، فكذبوه وأراد ملكهم قتله فاختفى في تلك الجبال، اشتاق إلى الناس فنزل فمكث عند امرأة من بني إسرائيل وهي أم يونس بن متى عليه السلام، وكان يونس إذ ذاك رضيعاً ثم رجع إلى الجبال فمات يونس عليه السلام، فأتت أمه إلى تلك الجبال، فما زالت تطوف حتى ظفرت بإلياس عليه السلام، فسألته أن يدعو لابنها فيحييه الله، فقال لها : إني لم أومر بهذا، وإنما أنا عبد مأمور، فجزعت فزاد جزعها وتضرعها إليه، فرق لها ورحمها وسار معها فوصل إلى بيتها بعد أربعة عشر يوماً من حين مات، وهو مسجى في ناحية البيت، فدعا الله فأحياه لها، وعاد إلياس عليه السلام إلى جبله {لمن المرسلين *}.

ولما كان من أعظم المقاصد التسلية على استكبارهم عن كلمة التوحيد وقولهم: أنه شاعر مجنون، ذكر من أمر يونس عيله السلام ما يعرف منه صعوبة أمر الرسالة وشدة خطبها وثقل أمرها وشدة عنايته سبحانه بالرسل عليهم السلام وأنه ما اختارهم إلا عن علم فهو لا يقولهم وإن اجتهدوا في دفع الرسالة ليزدادوا ثباتاً لأعبائها وقوة في القيام بشأنها فقال: {إذ أبق} أي هرب حين أرسل من سيده الذي تشرفه الله بالرسالة ضعفاً عن حملها لأن الاباق الهرب من السيد إلى حيث يظن أنه يخفى عليه {إلى الفلك} أي البيت الذي يسافر فيه على ظهر البحر.

ولما كان فعله على صـــورة فعل المشــاحن وكان قصـــده الإيغال في البعد والإسراع في النقلة قال: {المشحون *} أي الموقر ملأ، فلا سعة فيه لشيء آخر يكون فيه، فليس لأهله حاجة في الإقامة لحظة واحدة لانتظار شـــيء من الأشـياء فحين وضـع رجله فيه سـاروا، فاضـطرب عليهم الأمر وعظم الزلزال حتى أشــرف مركبهم على الغرق على هيئة عرفوا بها أن ذلك لعبد أبق من سيده، فإن عند أهل البحر أن السفينة لا يستقيم سيرها وفيها آبق- نقله الكرماني وغيره عن ابن عباس رضـي الله عنهما، فسـبب لهم ذلك المساهمة أي المقارعة كما هو رسمهم في مثل ذلك الأمر فاستهموا فساهم، أي قارع يونس عليه السلام معهم؛ قال البغوي: والمساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة. ولما آل وقوع القرعة عليه إلى رميه من السفينة من محل علو إلى أسفل، عبر عن ذلك بما يدل على الزلق الذي يكون من علو إلى سفل فقال مسـبباً عن المسـاهمة: {فكان من المدحضـين *} أي الموقعين في الدحض، وهو الزلق، فنزل عن مكان الظفر بأن وقعت القرعة فرموه في البحر {فالتقمه} أي ابتلعه كما تبتلع اللقمة {الحوت} أي المعروف من جهة أنه لا حوت أكبر منه، فكأنه لا حوت غيره {وهو } أي والحال أن يونس عليه السلام {مليم *} أي داخل في الملامة.

▲ تفسير الآيات رقم [143- 148]

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَـقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَـجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)}

ولما وقع ما وقع فتجرد عن نفسه وغيرها تجرداً لم يكن لأحد مثل مجموعه لا جرم، زاد في التجرد بالفناء في مقام الوحدانية فلازم التنزيه حتى أنجاه الله تعالى، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: {فلولا أنه كان} أي خلقاً وخلقاً {من المسبحين *} أي العريقين في هذا المقام، وهو ما يصح إطلاق التسبيح في اللغة عليه من التنزيه بالقلب واللسان والأركان بالصلاة وغيرها لأن خلقه مطابق لما هيئ له من خلقه، فهو لازم لذلك في وقت الرخاء والدعة والخفض والسعة، فكيف به في حال الشدة، وحمله ابن عباس رضي الله عنهما على الصلاة {للبث في بطنه} أي حيّاً أو بأن يكون غذاء له فتختلط أجزاؤه باجزائه {إلى يوم يبعثون *} أي هو والحوت وغيرهما من الخلائق، وعبر بالجمع لإفادة عموم البعث، ولو أفرد لم يفد بعث الحيوانات العجم، ولو ثنى لظن أن ذلك له وللحوت خاصة لمعنى يخصها فلا يفيد بعث غيرهما، وقيل: للبث حيّاً في بطنه، وفي الآية إشارة إلى حديث «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» وحث على الذكر وتعظيم لشأنه.

ولما كان التقدير: ولكنه لما كان ذكاراً لله في حال الرخاء ذكرناه في حال الشدة، فأنجيناه من بطنه، وأخرجناه منه سالماً، وكان ذلك أمراً باهراً للعقل، أبرزه في مظهر العظمة فقال: {فنبذناه} أي ألقيناه من بطن الحوت إلقاء لم يكن لأحد غيره. وكان ذلك علينا يسيراً {بالعراء} أي المكان القفر الواسع الخالي عن ساتر عن نبت أو غيره، وذلك بساحل الموصل، وقال أبو حيان: قذفه في نصيبين من ناحية الموصل: {وهو سقيم *} أي عليل جداً مما ناله

من جوف الحوت بحيث أنه كان كالطفل ســـاعة يولد وهو إذ ذاك محمود غير مذموم بنعمة الله التي تداركته، فكان مجتبى ومن الصـــالحين {وأنبتنا} أي بعظمتنا في ذلك المكان لا مقتضـــى للنبات مطلقاً فيه فضـــلاً عما لا ينبت إلا بالماء الكثير.

ولما كان ســـقمه متناهياً بالغاً إلى حد يجل عن الوصـــف، نبه عليه بأداة الاستعلاء فقال: {عليه} أي ورفعناها حال إنباتنا إياها فوقه لتظله كما يظل البيت الإنسان. ولما كان الدباء عن النجم، وكان قد أعظمها سبحانه لأجله، عبر عنها بما له ساق فقال: {شجرة} ولما كانت هذه العبارة مفهمة لأنها مما له ســاق، نص على خرق العادة بقوله: {من يقطين *} أي من الأشــجار التي تلزم الأرض وتقطن فيها وتصـــلح لأن يأوي إليها ويقطن عندها حتى يصـــلح حاله، فإنه تعالى عظمها وأخرجها عن عادة أمثالها حتى صـــارت عليه كالعريش، واليقطين: كل ما يمتد وينبســـط على وجه الأرض ولا يبقى على الشــتاء ولا يقوم على ســاق كالبطيخ والقثاء، والمراد به هنا- كما قاله ابن عباس رضـــي الله عنهما شـــجرة القرع لعظم ورقها وبرد ظلها ونعومة ملمسها وأن الذباب لا يقربها، قال أبو حيان: وماء ورقه إذا رش به مكان لا يقربه ذباب أصــلاً، وقال غيره: فيه ملاءمة لجسد الإنسـان حتى لو ذهبت عظمة من رأســه فوضــع مكانها قطعة من جلد القرع نبت عليها اللحم وسد مسده، وهو من قطن بالمكان- إذا أقام به إقامة زائل لا ثابت.

ولما كان النظر إلى الترجية أعظم، ختم بها إشــارة إلى أنه لا يميته صــلى الله عليه وسلم حتى يقر عينه بأمته كثرة طواعية ونعمة فقال: {وأرسلناه} أي

بعظمتنا التي لا يقوم لها شيء. ولما لم يتعلق الغرض بتعيين المرسل إليهم، وهل هم الذين أبق عنهم أولاً ؟ قال : {إلى مائة ألف} والجمهور على أنهم الذين أرسل إليهم أولاً- قال أبو حيان. ولما كان العدد الكثير لا يمكن ناظره الوقوع فيه على حقيقة عدده، بل يصير- وإن أثبت الناس نظراً- يقول: هم كذا يزيدون قليلاً أو ينقصونه، وتارة يجزم بأنهم لا ينقصون عن كذا، وأما الزيادة فممكنة، وتارة يغلب على ظنه الزيادة، وهو المراد هنا، قال : {أو يزيدون *} لأن الترجية في كثرة الأتباع أقر للعين وأسر للقلب، وإفهاماً لأن الزيادة واقعة، وهؤلاء المرسل إليهم هم أهل نينوى وهم من غير قومه، فإن حدود أرض بني إسرائيل الفرات، ونينوى من شرقي الفرات بعيدة عنه جداً.

ولما تسبب عن إتيانه إليهم انشراح صدره بعد ما كان حصل له من الضيق الذي أوجب له ما تقدم قال : {فآمنوا} أي تجريداً لأنفسهم من الحظوظ النفسانية ولحوقاً بالصفات الملكية. ولما كان إيمانهم سبب رفع العذاب الذي كان أوجبه لهم كفرهم قال : {فمتعناهم} أي ونحن على ما نحن عليه من العظمة لم ينقص ذلك من عظمتنا شيئاً ولا زاد فيها {إلى حين *} أي إلى انقضاء آجالهم التي ضربناها لهم في الأزل.

ذكر قصة يونس عليه السلام من سفر الأنبياء قال مترجمه: نبدأ بمعونة الله وقوته بكتب نبوة يونان بن متى النبي : كانت كلمة الرب على يونان بن متى، يقول له: قم فانطلق إلى نينوى المدينة العظيمة وناد فيها بأن شرارتكم قد صعدت قدامي، وقام يونان ليفر إلى ترسيس من قدام الرب، وهبط إلى يافا ووجد سفينة تريد تدخل إلى ترسيس فأعطى الملاح أجرة ونزلها ليدخل

معهم إلى ترسيس هارباً من قدام الرب، والرب طرح ريحاً عظيمة في البحر، فكان في البحر موج عظيم، والسفينة كانت تتمايل لتتكسر وفرق الملاحون وجأر كل إنسان إلى إلهه، وطرحوا متاع السفينة في البحر ليخففوا عنهم، بحق هبط يونان إلى أسفل السفينة ونام فدنا منه سيد الملاحين وقال له: لماذا أنت نائم؟ قم فادع إلهك لعل الله يخلصنا ولا نهلك، وقال الرجل لصاحبه: تعالوا نقترع ونعلم هذا الشر من قبل من جاء علينا؟ فاقترعوا فجاءت القرعة على يونان، فقالوا له: أخبرنا ما هذا الشر؟ وماذا هو عملك، ومن أين أنت، ومن أيّ شعب أنت، وأيتها أرضك؟ فقال لهم يونان: أنا عبراني ولله رب السماء أخشى الذي خلق البر والبحر، ففرق أولئك القوم فرقاً شديداً، فقالوا له: ماذا صنعت؟ لأن أولئك الناس علموا أنه من قدام إلهه هرب، فلما أخبرهم قالوا: ما نصنع بك حتى يسكن عنا البحر لأن البحر هو ذا منطلق يزخر علينا؟ قال لهم يونان: خذوني فاطرحوني في البحر فيسكن عنكم البحر لأني أعلم أن هذا الموج العظيم من أجلي هاج عليكم، فجهد أولئك الناس أن يرجعوا إلى الساحل، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، لأن البحر كان ذاهباً يزخر عليهم، ودعوا إلى الرب وقالوا: أيها الرب لا يحسب علينا دم زكي، ولا نهلك بنفس هذا الرجل من أجل أنك أنت الرب، وكل ما شئت تصنع، فأخذوا يونان وطرحوه في البحر، فاستقر البحر من أمواجه، وفرق أولئك الناس من قدام الرب فرقاً شديداً، وذبحوا ذبائح للرب ونذروا له النذور، وهيأ الرب سمكة عظيمة فابتلعت يونان، وكان يونان في أمعاء السمكة ثلاثة أيام وثلاث ليالي وقال: دعوت الرب في

حزني فأجابني، ومن بطن الجحيم تضـرعت إليه، وسـمع صـوتي وطرحني في الغوط في قلب البحر، والأنهار أحاطت بي، وكل أمواجك واهياجك عليّ جازت، أنا بحق قلت : إني قد تباعدت من قدام عينيك، من الآن أترى أعود فأنظر إلى هيكلك المقدس، وقد أحاطت بي المياه حتى نفســـي والأهوال أحاطت بي، وفي أسـفل البحر احتبس رأســي، وإلى أسـفل الجبال هبطت، والأرض أطبقت أغلاقها في وجهي إلى الدهر، إذا اغتمت نفســـي للرب ذكرت ودخلت صـــلاتي قدامك إلى هيكلك المقدس، فكل الذين يحفظون الأنســاك البطالة رحمتهم فتركوا، أنا بحق بصـوت الشـكر أقرب لك وأذبح، والذي نذرته أوفيه للرب! فأمر الرب السـمكة فقذفت يونان في اليبس، وأتى الكلام الرب إليه المرة الثانية، وقال لـه : قم يا يونـان فانطلق إلى نينوى المدينة العظمية وناد فيها بالنداء الذي أقولـه لك، فقام يونان وانطلق إلى نينوى مثل كلمة الرب، ونينوى كانت مدينة عظيمة للرب مسـيرة ثلاثة أيام، وتبدّأ يونان أن يدخل إلى نينوى مســـيرة يوم واحد ونادى وقلال : من الآن وإلى أربعين يوماً نينوى تنقلب، فآمن أهل نينوى لله وفرضـوا الصـوم ولبسـوا المســوح من عظمائهم حتى صـــغائرهم، وانتهت الكلمة إلى ملك نينوى فقام عن كرسيه ونزع تاجه، واكتسى مسح شعر، وجلس على الرماد، ونادى في نينوى وقال الملك وأشــرافه : وكل الناس والغدائر والثيران والغنم فلا يذوقون شيئاً من الطعام ولا يرعون، وماء فلا يشربون، ولكن فليلبس الناس والغدائر ويدعو الله بالتضـرع، ويرجع كل إنسـان عن طريقة السوء، وعن الاختطاف الذي في يده، وقالوا : من ذا الذي يعلم أن الله يقبل منا ويترحم علينا ويرد

عنا غضـــــبه ورجزه لكيلا نهلك، ونظر الله إلى أعمالهم أنهم قد تابوا عن طرقهم السـوء فرد عنهم غضـب رجزه ولم يبدهم، وحزن يونان حزناً شـديداً، وتكره من ذلك جداً، وصلى قدام الرب وقال: أيها الرب! ألم تكن هذه كلمتي، وأنا بعد في بلادي ولذلك سـبقت وفررت إلى ترسـيس، قد عرفت بحق أنك الرحمن الإله الرؤوف، طويل صبرك وكثيرة نعمتك، وترد السوء الآن يا رب! انزع نفســـــي مني لأن الموت أنفع لي من الحياة، فقال له : جداً حزنت يا يونان، وخرج يونان من المدينة واتخذ له ثمة مظلة وجلس تحتها في الظل لينظر ما الذي يعرض للمدينة، وأمر الله الرب أصـــــل القرع، ونبت وارتفع على رأس يونان، فكان ظل على رأســـــه فتفرج من شـــــدته وفرح فرحاً كثيراً يونان بأصل القرع.

وفي اليوم الآخر أمر الله الرب دودة في مطلع الصبح فضربت أصل القرع وقرضـته، فلما طلعت الشـمس أمر الله ريح السـموم فيبسـت أصـل القرع، وحميت الشمس في رأس يونان، واغتم وسال الموت لنفسه وقال: إنك يا رب تقدر تنزع نفسي مني، لأني لم أكن أخبر من إياي، وقال الرب ليونان: جداً حزنت على أصل القرع، فقال يونان: جدّاً أحزن حتى الموت، قال له الرب: أنت أشفقت على أصل القرع الذي لم تعن به ولم تربه، الذي في ليلة نبت، وفي ليلة يبس، فكيف لا أشـــفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنتي عشـــرة ربوة من الناس الذين لا يدرون ما بين يمينهم من شمالهم وكثرة من الغدائر– انتهى. ولعل أصل القرع المذكور هنا كان نبت عليه حين خرج من بطن الحوت، فلما اتفق له ما ذكر هنا رجع إليه وقد زاد

عظمه فبنى تحته عريشـــاً وجلس تحته، فكان منه ما كان، فلا يكون حينئذ ما هنا مخالفاً لما ذكر أهل الأخبار في هذه القصة- والله الموفق.

▲ تفسير الآيات رقم [149- 157]

{فَاسْــــتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُــلْطَانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (157)}

ولما كان الذي سبق ادعاؤه أمرين أحدهما أن هؤلاء المنذرين يسارعون في اقتفاء آثار آبائهم في الضلال، والثاني أن أكثر الأولين ضلوا، وسيقت دليلاً شـــهودياً على الثاني هذه القصـــص الســـت التي ما اهتدى من أهلها أمة بكمالها إلا قوم يونس عليه السلام، كان ذلك سبباً للأمر بإقامة الدليل على ضـــلال هؤلاء تبعاً لآبائهم بأمر ليس في بيان الضـــلال أوضـــح منه، فقال متهكماً بهم مخصصـــاً الأمر به صلى الله عليه وسلم إشارة إلى عظم هذه النتيجة وأنه لا يفهمها حق فهمها سواه صلى الله عليه وسلم: {فاستفتهم} أي فاطلب من هؤلاء الذين يعرضـون عن دعوتك إلى أباطيلهم أن يجيبوك فتوة منهم وكرماً: بأي دليل وبأي حجة حكموا بما يقولونه تبعاً لآبائهم في الملائكة الذين تقدم في فاطر أنهم رسل الله، وفي يس أنهم في غاية الشدة بحيث إن عذاب الأمة الكثيرة يكفي فيه واحد منهم، وبحيث إن صيحة واحده من أحدهم يميت الأحياء كلهم، وصيحة أخرى يحي الأموات كلهم، هذا إلى

ما أفادته هذه السورة لهم من الصف والزجر والتلاوة حين ابتدأت بالإقسام بهم لأن لمقصودها نظراً عظيماً إلى أحوالهم في تجريديهم وتقديسهم، ويلزم من هذا الاستفتاء تنزيههم وتنزيه الذي خلقهم وذلك مقصود السورة، ولفت الكلام عن مظهر العظمة إلى ما هو دليل عليها فإن الرسول دال على قدر من أرسله فقال: {ألربك} أي خاصة وهو الملك الأعلى الذي رباك وأحسن إليك بهدايتك والهداية بك وغير ذلك من أمرك حتى كنت أكمل الخلق وأعلاهم في كل أمر يكون به الكمال والقرب من الله فاصطفاك لرسالته، ففي إفراد الضمير إشارة إلى أنه لا يختار إلا الأكمل الأشرف الأفضل.

ولما كان المراد تبكيتهم بكونهم جعلوا الأخس لله، وكانت الإناث أضعف من الذكور، ولكنها قد تطلق الأنوثة على غير الحيوان، وكانت الإناث في بعض الأجناس كالأسحار أشرف، عدل عن التعبير بالإناث وعبر بما ينص على المراد فقال: {البنات} أي دون البنين، وهم- مع أنهم مربون مقهورون- يأنفون منهم غاية الأنفة {ولهم} أي دونه {البنون *} مع أن الرب الذي خصوه بأدنى القبيلين تارة يخلق الذكر من تراب ويربيه أحسن تربية، وأخرى من غيره أو يخرجه من بطن حوت أو غمرات نار أو غير ذلك، فبأي وسيلة ادعوا له ولداً والولد لا يكون إلا بالتدريج في أطوار الخلق من النطفة إلى ما فوقها، ولا يرضى بذلك إلا عاجز فكيف بادعاء أدنى الصنفين من الولد، سبحان ربك رب العزة.

ولما كان دعواهم لأنوثة الملائكة متضمنة لادعاء العلم باختصاصه عند دعوى الولدية بأدنى القبيلتين أو ادعاء العلم بأنه خلقهم إناثاً بمشاهدة منهم

أو كتاب منه إليهم، وأما العقل فإنه لا مدخل له في ذلك، قال معلماً بأنهم أهل لأن يبكتوا ويستهزأ بهم لأنه لا علم عندهم بإحدى الطريقين، ولا يقدرون أن يدعوا ذلك لئلا يفتضحوا فضيحة لا تتجبر أصلاً، عائداً إلى التصريح بمظهر العظمة التي إن لم يقتض اختيار الأكمل لم يقتض الاختصاص بالأدون لأنها منافية بكل اعتبار للدناءة {الملائكة} أي الذين حكموا عليهم بالأنوثة، وهم من أعظم رسلنا وأجل خواصنا ولم يروا منهم أحداً ولا سبيل لهم إلى العلم بأحوالهم باعترافهم بذلك، ولما تعين أن المراد بالأنوثة الخساسة، وكان في بعض الإناث قوة الذكور، عبر بالأنوثة إلزاماً لهم في حكمهم ذلك بخساستين فقال: {إناثاً وهم} أي والحال أن هؤلاء الذين ينسبون إلى الله ما لا يليق به {شاهدون *} أي ثابت لهم شهود ذلك لا يغيبون عنه، فإنا كل يوم نجدد منهم من شئنا، قال الرازي: وكل واحد من الملائكة نوع برأسه، أما الآدميون فكلهم نوع واحد، وهو ناقص في ابتداء الفطرة، مستكمل، وله درجات في الترقي إلى أن يبلغ مقام المشاهدة، وهو أن تتجلى له حلية الحق الأول من ذاته وصفاته وترتيب أفعاله علماً لا ينفصل عنه ولا يغيب فيترقى في إدراكه عن المحسوسات والخيالات، ويترقى فعله عن أن يكون لمقتضى الغضب أو الشهوة، وبهذا يقرب من الله تعالى- انتهى.

ولما اشتد تشوف السامع إلى أن يعلم حقيقة قولهم الذي تسبب عنها هذا الاستفتاء أعلم سبحانه بذلك في قوله مؤكداً إشارة إلى أنه قول لا يكاد أن لا يقر أحد أنه قاله، معجباً منهم فيه منادياً عليهم بما أبان من فضيحتهم بما قدم من استفتائهم: {إلا أنهم من إفكهم} أي من أجل أن صرفهم الأمور عن

وجوها عادتهم {ليقولون *} أي قولاً هم مستمرون عليه وإن كانوا لا يقدرون على إبرازه في مقام المناظرة، وعدل عن مظهر العظمة إلى إســـم الجلالة العلم على الذات الجامعة لجميع الصفات إشارة إلى أن كل صفة من صفاته ونعت من نعوته يأبى الولدية فقال : {ولد الله} أي وجد له– وهو المحيط بصفات الكمال– ولد وهم على صفة الأنوثة أي أتى بالولد، فولد فعل ماض والجلالة فاعل، وقرئ شـــاذاً برفع «ولد» على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجر الجلالة بالإضـــافة، والولد فعل بمعنى مفعول كالقبض، فلذلك يخبر به عن المفرد وغيره والمؤنث وغيره.

ولما أتى سبحانه بالاسم الأعظم إشارة إلى عظيم تعاليه عن ذلك، صرح به في قوله دالاً على الثبوت مؤكداً لأجل دعواهم أنهم صـــــادقون : {وإنهم لكاذبون *} ودل على كذبهم أيضـــاً بإنكاره موبخاً لهم في أسـلوب الخطاب زيادة في الإغضـاب في قوله: {اصـطفى} بهمزة الاسـتفهام الإنكاري، ومن أسقطها فهي عنده مقدرة مرادة، أي أخبروني هل اختار هذا السيد الذي أنتم مقرون بتمام علمه وشمول قدرته وعلو سؤدده ما تسترذلونه.

ولما كان التعبير بالبنت أكره إليهم من التعبير بالأنثى، والتعبير بالابن أحب إليهم من التعبير بالذكور وأنص على المراد لأن الذكر مشـــترك بين معان، قال: {البنات} اللاتي تستنكفون أنتم من لحوقهن بكم، وتستحيون من نسبتهن إليكم، حتى أن بعضـكم ليصـل في إبعادهن إلى الوأد {على البنين *} فكان حينئذ نظره لنفســـه دون نظر أقلكم فضـــلاً عن أجلكم، ولذلك عظم حســـناً وتناهى بلاغة قوله: {ما} أي يا معاشـــر العرب المدعين لصـــحة العقول

وسـداد الأنظار والفهوم! أيّ شـيء {لكم} من الخير في هذا المقال؟ ثم زاد في التقريع عليه بقوله معجباً منهم: {كيف تحكمون *} أي في كل سـألناكم عنه بمثل هذه الأحكام التي لا تصدر عمن له أدنى مسكة من عقله، وعبر بالحكم لاشـتهاره فيما يبت فيأبى النقص، فكان التعبير به أعظم في تقريعهم حيث أطلقوه على ما لا أوهى منه.

ولما كان هذا شديد المنافاة للعقول، عظيم البعد عن الطباع، حسن جداً قوله أيضــاً مبكتاً: {أفلا تذكرون *} أي أدنى تذكر بما أشــارت إليه قراءة من خفف بما جمعت من التخفيف والحذف، فإن الأمر في غاية الظهور لما في عقولكم وطباعكم من أنكم لا ترضـون لأنفسـكم أخس المنازل، فكيف يختاره لنفســـه ربكم الذي بيده كل شـــيء؟ وإنه لا يكون الولد مطلقاً إلا ممن له جنس، فيكون محتاجاً إلى جنســه، والمحتاج لا يكون إلهاً بوجه، وأشــارت قراءة الجماعة بالتشــديد والإدغام إلى أن الأمر يحتاج إلى مزيد تذكر بما أشـار إليه التشـديد مع دقة بما أشـار إليه الإدغام لأجل حل شـبهة من يرى أفعال من يحيي الموءودة فيظن أن ذلك رغبة منهم في الإناث، وليس ذلك إلا رغبة في دفع فسـاد القتل ورحمة للضـعيف، ولم يقرأ بالفك إشـارة إلى أن الأمر غني عن الدرجة العليا في التأمل.

ولما قررهم على شـــهود ذلك بما تضـــمن إبطاله عقلاً، فلم يبق من طرق الأدلة إلا السمع، عادل به قوله: {أم لكم} أي على ادعاء ذلك {سلطان} أي دليل سـمعي بخبر سـماوي قاهر، وأشـار إلى أنه لا يتكلم في أحوال الملوك إلا بأمر واضح بقوله: {مبين *}.

ولما كان المراد بهذا- ولا بد- البرهان الســـمعي، بينه بما ســـبب عنه من قوله: {فأتوا بكتابكم} أي الذي أتاكم بذلك السلطان من الملك في أنه اختار لنفســه ذلك، ودل على كذبهم تلويحاً بعد أن أتى به تصــريحاً وهو أنكى ما يكون بالإتيان بأداة الشــك في قوله: {إن كنتم صــادقين *} وهذه الآيات صــادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع، والأســاليب التي وردت عليها ناطقة بتسفيه أحلام المدعي لذلك وبجهل نفوسهم، واستركاك عقولهم، مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مثل ذلك على بال فضـــلاً عن أن يتخذ معتقداً، ويتظاهر به مذهباً.

▲ تفسير الآيات رقم [158- 164]

{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164)}

ولما تم إظهار ضلالهم، بكتهم في أسلوب آخر معرضاً عن خطابهم تخويفاً من إحلال عذابهم فقال: {وجعلوا} أي بعض العرب منابذين لما مضى بيانه من الأدلة {بينه وبين الجنة} أي الجن الذين هم شر الطوائف، وأنثهم إشارة إلى تحقيرهم عن هذا الأمر الذي أهلوهم له {نســباً} بأن قالوا: إنه- جلت ســبحات وجهه وعظم تعالى جده- تزوج بنات ســروات الجن، فأولد منهم الملائكة، ومن المعلوم أن أحداً لا يتزوج إلا من يجانســه، فأبعدوا غاية البعد لأنه لا مجانس له. ولما كان النســيب يكرم ولا يهان قال مؤنثاً لضــميرهم

زيادة في تحقيرهم: {ولقد علمت الجنة} أي مطلقاً السـروات منهم والأسـافل {إنهم} أي الجن كلهم {لمحضـرون *} أي إليه بالبعث كرهاً ليعاملوا بالعدل مع بقية الخلائق يوم فصـــل القضـــاء، والتجلي في مظاهر العز والعظمة والكبرياء، فهم أقل من أن يدعى لهم ذلك.

ولما ذكر اليوم الأعظم الذي يظهر فيه لكل أحد معاقد الصـفات، وتتلاشـى عند تلك المظاهر أعيان الكائنات، وتتمحي لدى تلك النعوت آثار الفانيات، وكـان ذكره على وجـه مبين بُعد الجن عن المناســـبة، كـان مجزأ للتنزيـه وموضـــعاً بعد تلك الضـــلالات للتقديس نتيجة لذلك فقال مصـــرحاً باســـم التسبيح الجامع لجميع أنواعه، والجلالة إشارة إلى عظم المقام: {سبحان الله} أي تنزه الذي له جميع العظمة تنزهاً يفوت الحصـر {عما يصـفون *} أي عما يصـفه به جميع الخلائق الذين يجمعهم الإحضـار ذلك اليوم، أو الكفار الذين ادعوا لـه الولد وجعلوا الملائكـة من الولد {إلا عباد الله} أي الـذين يصـلحون للإضـافة إلى الاسم الأعظم من حيث إطلاقه على الذات الأعظم ولذلك أظهر ولم يضمر، لأن الضمير يعود على عين الماضـي، فربما أوهم تقييده بما ذكر في الأول فيفهم تقييد تشريفهم بالتسبيح، {المخلصين *} من جميع الخلائق أو من العرب وهم من أسلم منهم بعد نزول هذه السورة فإنهم لا يصـفونه إلا بما أذن لهم فيه ولأجل أن هذه السـورة سـورة المتجردين عن علائق العوائق عن السير إليه، كرر وصـف الإخلاص فيها كثيراً.

ولما نزه نفسه المقدس سبحانه عن كل نقص، دل على ذلك بأنهم وجميع ما يعبدونه من دونه لا يقدرون على شـــيء لم يقدره، فقال مســـبباً عن التنزيه

مؤكداً تكذيباً لمن يظن أن غير الله يملك شـــيئاً مواجهاً لهم بالخطاب لأنه أنكى وأجدر بالإغضاب: {فإنكم وما تعبدون *} أي من الأصنام وغيرها من كل من زعمتموه إلهاً. وابتدأ الخبر عن «أن» فصـــدره بالنافي فقال: {ما} وغلب المخاطبين المعبر عنهم بكاف الخطاب على من عطف عليهم وهم معبوادتهم تنبيهاً على أنهم عدم كما حقرهم بالتعبير عنهم بما دون «من» فقال مخاطباً: {أنتم عليه} أي على الله خاصة {بفاتنين *} أي بمغيرين أحداً من الناس بالإضـلال {إلا من هو} أي في حكمه وتقديره {صال الجحيم *} أي معذب بعذابه لحكمه عليه بالشـقاوة فعلم أنكم لا تقدرون أن تغيروا عليه إلا من غيره هو فبحكمه ضـــل لا بكم، نعوذ بك منك، لا مهرب منك إلا إليك، والمراد بتقديم الجار أن غيره قد يقدر على أن يفســد عليه من لا يريد فساده ويعجز عن رد المفسد، فالتعبير بأداة الاستعلاء تهكم بهم بمعنى أنه ليس في أيديكم من الإضـلال إلا هذا الذي جعله لكم من التسبب، فإن كان عندكم غلبة فسـموه بها، وتوحيد الضـمير على لفظ «من» في الموضـعين للإشارة إلى أن الميت على الشرك بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم من العرب قليل، وقرئ شاذاً «صالوا» دفعاً لظن أنه واحد.

ولما كان من المعلوم أن هذا الاستفتاء من النبي صـلى الله عليه وسلم وقع امتثالاً للأمر المصـــدر به، وبطل بهذه الجملة قدرتهم وقدرة معبوداتهم التي يدعون لها بعض القدرة، قال مؤكداً لذلك ومبطلاً لقدرة المخلصـــين أيضـــاً عطفاً على {فإنكم وما تعبدون}: {وما منا} أي نحن وأنتم ومعبوادتكم وغير ذلك، أحد {إلا لـه مقام معلوم *} قد قدره الله تعالى في الأزل، ثم أعلم

الملائكة بما أراد منه فلا يقدر أحد من الخلق على أن يتجاوز ما أقامه فيه سبحانه نوع مجاوزة، فلكل من الملائكة مقام معروف لا يتعداه، والأولياء لهم مقام مســـتور بينهم وبين الله لا يطلع عليه أحد، والأنبياء عليهم الصــــلاة والســــلام لهم مقام مشـــهور مؤيد بالمعجزات الظاهرة، لأنهم للخلق قدوة، فأمرهم على الشـــهرة، وأمر الأولياء على الســـترة- قاله القشـــيري، وغير المذكورين من أهل السعادة لهم مقام في الشقاوة معلوم عند الله تعالى وعند من أطلعه عليه من عباده.

▲ تفسير الآيات رقم [165- 171]

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِـــينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171)}

ولما سلب عن الكل كل شـيء من القدرة إلا ما وهبهم، وكان الكفار يدعون أنهم يعبدون الله تعالى وينزهونه وأن الإشـــراك لا يقدح في ذلك، بين أن المخلصين خصـوا دونهم بمواقف الصفاء، ومقامات الصدق والوفاء، لأن طاعتهم أبطلها إشـراكهم، فقال مؤكداً ومخصـصــاً: {وإنا} أي يا معشـر المخلصين {لنحن} أي دونكم {الصافون *} أي أنفسنا في الصلاة والجهاد وأجنحتنا في الهواء فيما أرســلنا به وغير ذلك لاجتماع قلوبنا على الطاعة {وإنا لنحن المســـبحون *} أي المنزهون له ســـبحانه عن كل نقص مما

ادعيتموه من البنات وبجوز أن يكون المعنى: لنا هذا الفعل، وهو الصف والتسبيح، ولا ينوي له مفعول البتة.

ولما بين ضلالهم وهداه صلى الله عليه وسلم وهدى من اتبعه- بما أشار إليه بصفة الربوبية التي أضافها إليه في قوله «ألربك» أعلم بأنهم زادوا على عيب الضلال في نفسه عيب الإخلاف للوعد والنقض لما أكدوه من العهد، فقال مؤكداً إشارة إلى أنه لا يكاد يصدق أن عاقلاً يؤكد على نفسه في أمر ثم يخلفه جواباً لمن يقول: هل نزهوه كما نزهه المخلصون: {وإن} أي فعلوا ذلك من الضلال بالشبه التي افتضحت بما كشفناه من ستورها ولم ينزهوا كما نزه المخلصون والحال أنهم {كانوا} قبل هذا {ليقولون} أي قولاً لا يزالون يجددونه مع ما فيه من التأكيد {لو أن عندنا ذكراً} أي على أيّ حال كان من أحواله من كتاب أو غيره {من الأولين} أي من الرسل الماضين {لكنا عباد الله} أي بحيث أنا نصير أهلاً للإضافة إلى المحيط بصفات الكمال {المخلصين *} أي في العبادة له بلا شائبة من شرك أصلاً.

ولما كان هذا الذكر- الذي أتاهم مع كونه أعظم ذكر أتى مصدقاً لكتب الأولين وكان الرسول الآتي به أعظم الرسل، فكان لذلك هو عين ما عقدوا عليه مع زيادة الشرف- سبباً لكفرهم قال: {فكفروا به} أي فتسبب عما عاهدوا عليه أنهم كفروا بذلك الذكر مع زيادته في الشرف على ما طلبوا بالإعجاز وغيره فتسبب عن ذلك تهديدهم ممن أخلفوا وعده، ونقضوا مع التأكيد عهده، فقال: {فسوف يعلمون *} أي بوعيد ليس هو من جنس كلامهم، بل هو مما لا خلف فيه بوجه. ولما كان التقدير كما أرشد إليه

سـياق التهديد: فلقد سـبقت كلمتنا على من خالف رسـلنا بالخذلان المهين، عطف عليه قوله: {ولقد سـبقت} أي في الأزل {كلمتنا} أي على ما لنا من العظمة {لعبادنا} أي الذين أخلصـــوا لنا العبادة في كل حركة وســـكون {المرســـلين *} الذين زدناهم على شـــرف الإخلاص في العبودية شـــرف الرسالة.

▲ تفسير الآيات رقم [172- 178]

{إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُـورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِـرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِـرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178)}

ولما آذنت اللام بعلوهم، أوضح ذلك ببيان ما سماه كلمة لانتظامه في معنى واحد بقوله: {إنهم} وزاد في تأكيده في نظير ما عند الكفرة على ما تدل أعمالهم أنه في غاية البعد فقال: {لهم} أي خاصـــة {المنصـــورون *} أي الثابت نصـــرهم في الجدال والجلاد وإن وقع للكفار عليهم في الثاني ظهور ما. ولما خص بذلك المرسـلين، عم فقال: {وإن جندنا} أي من المرسـلين وأتباعهم، ولما كان مدلول الجند في اللغة العسكر والأعوان والمدينة وصنفاً من الخلق على حدة، قال جامعاً على المعنى دون اللفظ نصـاً على المراد: {لهم} أي لا غيرهم {الغالبون *} أي وإن رئي أنهم مغلوبون لأن العاقبة لهم إن لم يكن في هذه الدار فهو في دار القرار، وقد جمع لهذا النبي الكريم فيهما، وســـمى هذا كله كلمة لانتظامه معنى واحداً، ولا يضـــر انهزام في

بعض المواطن من بعضـــهم ولا وهن قد يقع، وكفى دليلاً على هذا ســـيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة بعده رضي الله عنهم.

ولما ثبت لا محالة بهذا أنه صـلى الله عليه وسـلم هو المنصـور لأنه من المرسـلين ومن جند الله، بل هو أعلاهم، سـبب عن ذلك قوله: {فتولّ} أي فكلف نفسك الإعراض {عنهم} أي عن ردهم عن الضلال قسراً {حتى حين *} أي مبهم، وهو الوقت الذي عيناه لنصـرك في الأزل {وأبصـرهم} أي ببصرك وبصيرتك عند الحين الذي ضربناه لك وقبله: كيف تؤديهم أحوالهم وتقلباتهم كلما تقلبوا إلى سفول.

ولما كانوا قبل الإسـلام عمياً صـمًّا لأنهم لا يصـدقون وعداً ولا وعيداً، ولا يفكرون في عاقبة، حذف المفعول من فعلهم فقال متوعداً محققاً بالتوسـيف لا مبعداً: {فسوف يبصرون *} أي يحصل لهم الإبصار الذي لا غلط فيه بالعين والقلب بعد ما هم فيه من العمى، وهذا الحين واضح في يوم بدر وما كان من أمثاله قبل الفتح، فإنهم كان لهم في تلك الأوقات نوع من القوة، فلذلك أثبتهم نوع إثبات في أبصرهم.

ولما كانت عادتهم الاسـتعجال بما يهددون به اسـتهزاء، كلما ورد عليهم تهديد، سـبب عن ذلك الإنكار عليهم على وجه تهديد آخر لهم فقال: {أفبعذابنا} أي على ما علم له من العظمة بإضـافته إلينا {يسـتعجلون} أي يطلبون أن يعجل لهم فيأتيهم قبل أوانه الذي ضـربناه له. ولما علم من هذا أنه لا بشـرى لهم يوم حلوله، ولا قرار عند نزوله، صـرح بذلك في قوله: {فإذا} أي هددناهم وأنكرنا عليهم بسـبب أنه إذا {نزل بسـاحتهم} أي غلب

عليها لأن ذلك شـأن النازل بالشـيء من غير إذن صـاحبه ولا يغلب عليها إلا وقد غلب على أهلها فبرك عليهم بروكاً لا يقدرون معه على البروز إلى تلك السـاحة وهي الفناء الخالي عن الأبنية كأنه متحدث القوم وموضـع راحتهم في أي وقت كان بروكه من ليل أو نهار، ولكن لما كانت عادتهم الإغارة صباحاً، قال على سبيل التمثيل مشيراً بالفاء إلى أنه السبب لا غيره {فسـاء صـباح المنذرين *} أي الذين هم أهل للتخويف من هؤلاء وغيرهم وهذا التهديد لا يصـلح لأن ينطبق على يوم الفتح ولقد صـار من لم يتأهل لغير الإنذار فيه في غاية السـوء، وهم الذين قتلهم النبي صـلى الله عليه وسـلم في ذلك اليوم، ومنهم من تعلق بأسـتار الكعبة فلم يفده ذلك، ولكنهم كانوا قليلاً، والباقون إن كان ذلك الصباح على ما ساءهم منظره فلقد سرهم لعمر الله مخبره.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة لا يستأصل قومه بعذاب، قال دالاً على ذلك بتكرير الأمر تأكيداً للتسلية، ووعد النصرة مع ما فيه من زيادة المعنى على الأول، عاطفاً على «تولّ» الأولى: {وتول} أي كلف نفسك الصبر عليهم في ذلك اليوم الذي ينزل بهم العذاب الثاني والإعراض {عنهم حتى حين *} وكذا فعل صلى الله عليه وسلم فإنه حل بساحتهم يوم الفتح صباحاً، فلم يقدروا على مدافعة.

▲ تفسير الآيات رقم [179- 182]

{وَأَبْصِـرْ فَسَـوْفَ يُبْصِـرُونَ (179) سُـبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِـفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)}

ولما كابر بعضهم ودافع، لم يكن بأسرع من أن ولوا وطلبوا السلامة بالدخول فيما جعله صــلى الله عليه وســلم علماً على التأمين، وقال حماس بن قيس أخو بني بكر لما دخل بيته لامرأته : أغلقي عليّ الباب، فعيرته بالهزيمة بعن أن كانت تنهاه عن منابذة المســلمين فلا ينتهي ويقول لها : لا بد، أن أخدمك بعضهم:

إنك لو شهدت يوم الحندمه *** إذ فر صفوان وفر عكرمه

واستقبلتنا بالسيوف المسلمة *** يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضـرباً فلا يسـمع إلا غمغمه *** لهم نهيت خلقنا وهمهمه *** لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

ولما كان هذا منطبقاً على يوم الفتح، وكان ذلك اليوم قد أحل الكفار محلاًّ صاروا به بحيث لا اعتبار لهم قال: {وأبصـر} مسقطاً ضميرهم، أي أبصـر ما تريد من شؤونك التي يهمك النظر فيها، وأما هم فصـاروا بحيث لا يبالي بهم ولا يفكر في أمرهم ولا يلتفت إليهم، فـإنـا أبـدلنـا من عزتهم ذلاًّ، ومن كثرتهم قلاًّ، وجردنا تلك الأراضـــي من قاذورات الشـــرك، وأحللنا بها طهارة التنزيه وأقداس التحميد، وكذا كان، فإنه صـلى الله عليه وسـلم قال لهم وهو على درج الكعبة وهم تحته كالغنم المجموعة في اليوم المطير بعد أن قال «» لا إله إلا الله وحده لا شـريك له صـدق وعده ونصـر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده «: ما تظنون أني فاعل بكم يا معاشــر قريش؟ قالوا : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وقال له صفوان بن أمية: اجعلني بالخيار شـهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشـهر»، ولم يكلف

أحداً منهم الإسلام حتى أسلموا بعد ذلك طوعاً من عند آخرهم. ولما حاصر الطائف فعسرت عليه انصرف عنها، فما لبثوا أن أرسلوا إليه رسلهم وأسلموا فحسـن إسـلامهم ولم يرتد أحد منهم في الردة، وهذا من معنى {فسـوف يبصرون *}.

ولما تقرر له سـبحانه من العظمة ما ذكر، فكان الأمر أمره والخلق خلقه، ثبت تنزهه عن كل نقص واتصافه بكل كمال، فلذلك كانت نتيجة ذلك الختم بمجامع التنزيه والتحميد فقال: {سـبحان ربك} أي المحسـن إليك بإرسـالك وإقامة الدليل الظاهر المحرر على صـدقك بكل ما يكون من أحوال أعدائك من كلام أو سكوت، وتأييدك بكل قوة وإلباسك كل هيبة {رب العزة} أي التي هو مختص بها بما أفهمته الإضـافة وأفاد شـاهد الوجود وحاكم العقل، وقد علم بما ذكر في هذه السـورة أنها تغلب كل شـيء ولا يغلبها شـيء، وفي إضافة الرب إليه وإلى العزة إشارة إلى اختصاصه صلى الله عليه وسلم وكل من وافقه في أمره عن جميع الخلق بالعزة وإن رئي في ظاهر الأمر غير ذلك {عما يصـفون *} مما يقتضـي النقائص لما ثبت من ضـلالهم وبعدهم عن الحق.

ولما قدم السـلام على من شـاء تخصيصه في هذه السورة من رسله عمهم فقال عاطفاً على {سبحان}: {وسلام} أي تنزه له وسلامة وشرف وفخر وعلا {على المرسـلين *} أي الواصـفين له بما هو له أهل، الذين اصـطفاهم، الصـافين صفًّا، الزاجرين زجراً، التالين ذكراً، من البشر والملائكة المذكورين في هذه السـورة وغيرهم لأجل ما حكم لهم من سـبحانه في الأزل من العز

والنصــر {والحمد} أي الإحاطة بأوصــاف الكمال {لله} أي الجامع لجميع الأسماء الحسنى التي دل عليها مجموع خلقه، وإلى ذلك أشار بقوله: {رب العالمين *} فهو حينئذ الواحد المعتال، الذي تنزه عن الأكفاء والأمثال، والنظراء والأشكال، في كل شــيء من الأقوال والأفعال، والشؤون والأحوال، ولقد ترافق آخرها- كما ترى- وأولها، وتعانق مفصـــلها وموصـــلها- والله الهادي إلى الصواب.